منشورات مؤسسة تاوالت الثقافية سلسلة الأبحاث التاريخية - 17



(رحلة ماريو كورسي عبر جبل نفوسة)

ترجمة الأستاذين :

عبد الوهاب الداب - موحمد ؤمادي



http://www.tawalt.com/

مقدمة الناشر

ضمن أهداف مؤسسة تاوالت الثقافية التي وضعتها على عاتقها هو: ترجمة ونشر الأعمال المهمة والمتعلقة بالتاريخ الليبي على وجه العموم وتاريخ جبل نفوسة على وجه الخصوص. بلغ ماترجمته مؤسستنا الفتية مايربو عن 45 كتاب نشرناها على موقع المؤسسة خلال السنوات القليلة الماضية. ويأتي كتاب ماريو كورسي تكملة لما نشر عن تاريخ الجبل الممتد في القدم وإضاءة مغايرة عن إحتلال الجيوش الإيطالية للجبل بعد معركة جندوبة.

كتب الكتاب من قبل صحفي إيطالي لا تخلوا كتابته من تعصب لبني قومه ولكن لا يخلوا أيضامن فوائد جمة عن كيفية إستمالة ايطالية لبعض الأعيان الليبيين ضد إخوانهم في الدين والوطن.

نرجو أن تضيف هذه التراجم إلى المكتبة التاريخية لجبل نفوسة والليبية أيضا مزيداً من الفائدة. وخصوصاً لغير الناطقين باللغة الإيطالية التي كتبت بها هذه المذكرات والتي كانت بدورها عبارة عن مقالات لصالح جريدة لاتربونا. وسوف ننشر من ضمن هذه السلسلة المعنونة: «دراسات شمال إفريقية» مقالات متنوعة ومتعددة ذات أبعاد: تاريخية ودينية ولغوية واجتماعية. وبعدة لغات: كالإيطالية والفرنسية والألمانية والإنجليزية.

يندرج هذا العمل الطموح في ترجمة كل الأعمال المنجزة عن تاريخ الشمال الإفريقي والتاريخ الليبي، ضمن برنامج متوسع تقوم به مؤسسة تاوالت الثقافية في برنامجها البعيد المدى للبحث في الجذور، والتعمق بدراسات علمية رصينة في موروث الأجداد.

الناشر

مؤسسة تاوالت الثقافية

الولايات المتحدة الأمريكية

هذا الكتاب هو ترجمة من مؤلَّف لـ :

Mario Corsi

تحت عنوان :

A Traverso Il Gebel

المقدمة

لا يطمح هذا الكتيب إلى أخد مكانة بين الكتب الكثيرة التي أفرزتها حربنا الجليلة والتي يستحق بعضها التقدير. ولا أتحدث في صفحاته عن الفترة التاريخية المجيدة للغزو وإن كنت عاينتها منذ بدايتها ولكن عن سفر عبر جبل طرابلس بعد معاهدة أوشي (أوشي لوزان) للسلام حين كان صدى الطلقات النارية لآخر الثوار العرب ينتهي في الأودية الموحشة على مقربة من الحدود التونسية.

أرسلتني جريدة لاتريبونا Tribuna مرة ثانية إلى أفريقيا في أواخر شهر مارس من هذه السنة حينما كان اللواء لكيوLequio قد بدأ عملية اجتياح الجبل السريعة والشهيرة بعد أشهر عدة من الحرب وحرب العصابات والتي كان الهدف منها إعادة السلم إلى طرابلس وفتح أبواب الداخل في وجه ايطاليا. حينها استطعت أنا وزمرة من الأصدقاء اقتفاء الآثار الحديثة لجنودنا الأشداء وعبور الأراضي المرتفعة لطرابلس من جانب إلى آخر وقد أرسلت بعض المقالات لجريدتي حول هذا السفر.

اليوم بجمعي لتلك الانطباعات الصحافية المشتتة ونشرها بعد إثرائها وإضافة فصول جديدة إليها أود أن أساهم ولو بشكل متواضع في التعريف بمنطقة جد هامة في مستعمرتنا الجديدة، وهي منطقة ظلت حتى أشهر قليلة غير معروفة لدى الايطاليين ولم يسبق لأي من أبناء ايطاليا أن قطعها برمتها بسبب اعتراض الأتراك على ذلك بشدة وتعنت.

الجبل هو ذلك الجدار الكبير الذي يرتفع على بعد حوالي مائة كيلومتر من الساحل بين الخمس وساحل زوارة. ورغم أنه يتم تعريفه عموما على أنه سلسلة جبلية فإنه في الحقيقة ليس سوى ذلك الإطار الوعر للمرتفع الذي يشكل الساحل الصخري القديم. مع ذلك فهو يبدو على مظهر سلسلة جبلية وهو ما يفسر بسهولة كيف أن المسافرين الذين مروا بسرعة من طرابلس متجهين إلى مناطق جد بعيدة، وأمام ضرورة تجاوز الجدران الشاقولية التي تشكل حافة لمدرجات المرتفع الداخلي الشاسع والمتسق، وقعوا في نفس الخطأ الذي أدى ولأمد طويل في السودان إلى وضع تخطيط لجبال كونغ Kong التي لا وجود لها على الإطلاق.

فضلا عن ذلك فالجبل لازال منطقة تستوجب الدراسة وتكاد لا نجد له دراسات على المستوى الجيولوجي مادام أنه لا يمكننا اعتبارها نهائية وكاملة تلك الدراسات السطحية والمستعجلة التي قام بها ماتيوزيو Malthuisieulx أو تلك التقريبية الخاصة بالسواحل لفناسا Vinassa وفي الأخير تلك التي لم تظهر بعد لبعثة سان فليبو سفورسا San filippo-sforza التي سرعان ما توقفت في رحلتها الاستكشافية للداخل.

قليل إذن هو ما كتب ونشر عن الجبل غير أن هذا الكتاب، كما قلت، لا يتوخى سد هذا الفراغ وإنما يريد أن يكون دليلا انطباعيا حول تلك المناطق المرتفعة ولا شيء أكثر من ذلك.

م. ك.

أكتوبر 1913



الفصل الأول

غزو الجبل

الجبل البعيد - على آثار روما - الكدية البيضاء (العزيزية) - أسطورة الصحراء - عين بوغيلان مدير يقدم القرابين لباكو (آله الخمر)- العجائب الثلاثة لبوغيلان - الخطوة الأولى على الجبل- المضيق الصغير- فوق جبل غريان - قصر غريان، مدينة المناجذ- المكان الذي كان يسجن فيه الايطاليون.

قصر غريان، أبريل.

الجبل ... ! خلال أيام الحرب الطوال المفعمة بالقلق والإثارة، كنا نرى - خاصة في صباح بعض الأيام المضيئة بشمس أفريقيا، انطلاقا من المتارس الصلبة المحيطة بطرابلس العاصمة - خطا متعرجا يلوح خلف الرمال الصفراء المملة. كنا ننظر جميعا إلى ذلك الخط الجبلي على أنه شيء جد غامض وجد بعيد، وكأنه ضفة منشودة وموعودة في غد مخيف وكفردوس يتجلى لأصحاب الإيمان الصحيح. وهناك يوجد الجبل، كما كنا نقول. وكان هناك من يضيف أسماء غريبة عن مسامعنا- غير محددة- ويكتنفها الغموض: هناك توجد غريان. ثم يفرن،الزنتان وفساطو...وكان كل اسم فيما بعد يتلاشى ويبتعد مسافات لا تعد وصعبة المنال.

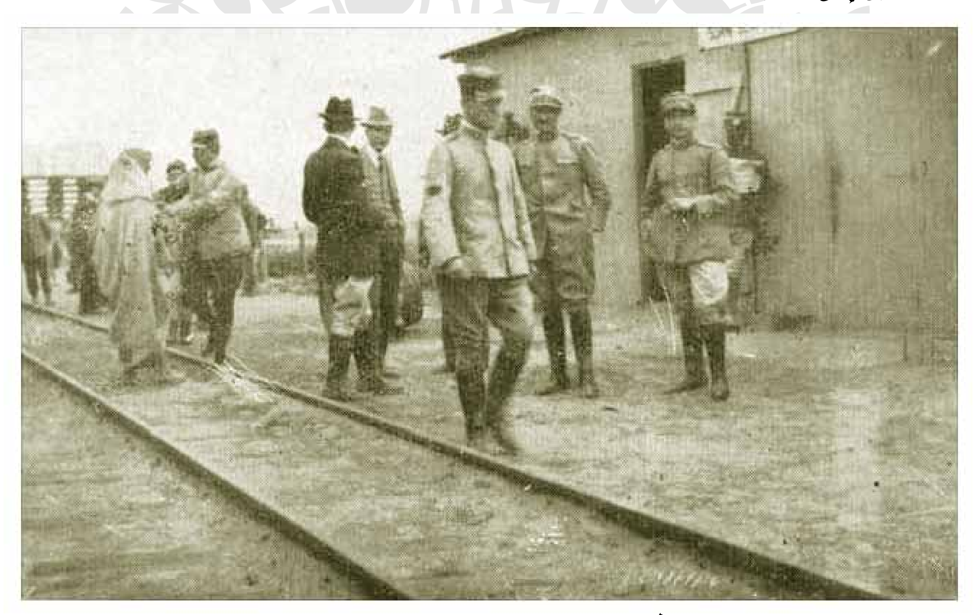
دامت الحرب التي كان النصر فيها حليفا لنا طويلا ثم جاء السلام غير أن ذلك الخط الطويل الذي يبرز أمامنا في الأفق الواضح وتلك الأسماء الغريبة لم يسقط عنها بعد ثوب الغموض. فالجبل لازال بعيدا خلف بحر الرمال !

لكن ذات يوم وبشكل مفاجئ تقريبا انجلى هذا الغموض: فقد انفتحت أولى بوابات الهضبة: أصبحت غريان، مفتاح الجبل، تحت سيطرتنا.

بوصولنا إلى الضفة الأخرى انفتحت أرض المرتفع الممتنعة أمامنا في صفاءها وعذريتها.

منذ ذلك الحين واقتفاء لآثار لم يمحوها الزمان وحقد الرجال بشكل كلي كان قد خلفها أولئك الرومان الذين اندفعوا بشجاعة وهيمنة بعد أن هوى نجم قرطاجة عبر الجبل العالي حتى بلغوا فزان. غدامس وتوغلوا أكثر جنوبا حتى السودان البعيد ليرسلوا إلى روما كل سنة من طرابلس إتاوة لا تقل عن عشرة آلاف قنطار من الزيوت وقمحا كثيرا كان يكفي لملئ خزانات أوستيا Ostia الكبيرة. اقتفاء لهذه الآثار القديمة فتح جنود روما الجدد طريقهم عبر الجبل. واليوم يرفرف العلم الايطالي فوق كل الهضبة التي تمتد من مدرجات ترهونة شرقا حتى آخر منحدرات نالوت غربا.

غداة هذه المسيرة الطويلة الشاقة المحفوفة بالنصر. بل وبينما كانت تتم آخر مراحلها. سمحت لنا سلطات طرابلس العاصمة أنا وزمرة من الرفاق بعبور كل مناطق الجبل المحتلة: هكذا كنا وبعض الجنود سباقين كإيطاليين إلى عبور جبل نفوسة برمته من الشرق إلى الغرب.



المحطة الصغيرة لسواني بن يادم

حتى الأمس القريب كان ينبغي السير لثمان ساعات للوصول إلى العزيزية. أول أكبر محطة على طريق الجبل. وهي ثماني ساعات من السير الشاق المرهق عبر سهل رملي لا نبات فيه ولا أعشاب. شديد الحرارة لا أثر فيه سوى لأقدام جمال آخر قافلة عبرته. أما نحن فللوصول إلى المكان الذي كان يشكل حتى الأمس المقر العام لقوات الأهالي والأتراك فقد استفدنا من خدمات أحدث وسيلة للنقل. ألا وهي السكة الحديدية التي

وضعها جنودنا ببسالة عبر الصحراء حين لم تكن الحرب بعد قد انتهت وعبدوها حتى بلغت العزيزية فور وضع الحرب لأوزارها.

على متن السكة الحديدية إذن وعبر بحر متموج من رمال لا تكف الريح عن تحريكها. على طول الساحل حتى جنزور بمحاذاة واحات جد خضراء جنوبا ومرورا بمحطة سواني بني أدن الصغيرة التي يبدو أن واحتيها المتواضعتين تريدان أن توحيا بوجود ظل ورطوبة. وصلنا خلال ساعتين فقط إلى الكدية البيضاء الناصعة الملتهبة تحت أشعة الشمس. وصلنا إلى العزيزية كما يطلق عموما على البلدة الأوروبية المتكئة برفق على كثبان رملية صفراء وفراش من حلفاء شاحبة جففتها الشمس.



القصر التركي بالكدوة (العزيزية)

لا تكتسي العزيزية أهمية إلا كحلقة وصل على طريق القوافل أو كمحطة لمن يخرج من طرابلس العاصمة إلى غريان أو - عكس ذلك تتكون البلدة برمتها - هي بلدة حديثة العهد - من ساحة شاسعة لها شكل مربع وتحدها من ثلاثة جوانب منازل صغيرة يكسوها طلاء من الجير ومن الجانب الرابع القصر أي الثكنة التركية. و هي عبارة عن مبنى خشن تتخلل أسواره فرجات وقد كان فيما مضى مقرا للمدير الذي كان يجمع بين وظائف قائد العسكر ونائب الحاكم والقاضي وأصبح الآن مقرا للسلطة العسكرية الايطالية. تطل قمة غريبة. أكمة صغيرة مخروطية الشكل. على هذه الساحة ويوجد فوقها حصن صغير تحرسه وحدة مدفعية ايطالية.

لا يمكن لهذه الكدية البيضاء أن تكتسب أهمية أكبر لأن البلدة لا تتوفر على ساكنة قارة والعرب الذين يصادفون بها هم رحال ينزلون من المناطق الجبلية قصد رعي قطعانهم أو قيادتها إلى الساحل؛ أو جمالة يقصدون طرابلس العاصمة أو في طريقهم نحو الداخل ونادرا ما تتجاوز مدة توقفهم هنا يومين لأن المنطقة عديمة المياه تماما. لا أعتقد أن السكة الحديدية الايطالية نفسها قد تكسبها أهمية أكبر رغم أنها سوف تيسر نقل البضائع وتمكن من التنقل بسرعة أكبر بين الهضبة والساحل. ستبقى إذن مجرد محطة عبور مفقودة فيما يعرف عموما بصحراء طرابلس، وهي أرض رملية جافة وكئيبة.

جاء في الأسطورة أنها كانت في يوم ما جنة فوق الأرض، غابة رائعة تمتد من البحر حتى غريان ثم تحولت فجأة إلى ما هي عليه الآن بعقاب من الله. لا تختلف هذه الأسطورة كثيرا عن تلك المسيحية التي تحكي عن أول مخلوقين عمرا الفردوس. فالسكان الذين عمروا المنطقة أول مرة انغمسوا في الشهوات إلى حد أن الله كلف الشيطان ليعاقبهم عقابا شديدا: فأرسل الشيطان إلى هذا الشاطئ فتاة رائعة على ظهر سمكة من ذهب. هرع ابن السلطان الذي كان يقيم في غريان إلى الشاطئ لرؤيتها فأغرم بها إلى حد الجنون غير أنه قطع على نفسه عهدا بأن لا يجبرها بالقوة للبقاء معه إذا ما هي خرجت من البحر. اندفعت الفارسة الحسناء نحو النهر الذي كان منبعه في الجبل لكن وبمجرد دخولها إليه قطع أمامها ابن السلطان الطريق المؤدية إلى المصب ولاحقها حتى منبع النهر وهنا حصلت المعجزة: بينما كان الأمير على وشك الإمساك بهذه المخلوقة الإلهية انفتحت هوة جد كبيرة فاختفت فيها ومعها كل ينابيع المنطقة. منذ ذلك الحين بدأت النباتات بالاندثار وتحولت الغابة الكبيرة في فترة وجيزة، وإلى الأبد إلى صحراء.

انطلقت رحلتنا على متن السيارة من العزيزية مليئة بالمفاجاءات والمغامرات والمخاطر إلى حد يجعلها أحيانا تفوق في الإثارة تلك الرابطة بين بكين وباريس.

أعطيت إشارة الانطلاقة في الساعات الأولى من الظهيرة. وبسرعة تركت الشاحنة العسكرية الثكنة التركية التي أعيد فتحها ليرفرف فوقها علم ايطالي كبير واتجهت في ثبات نحو قاعدة الهضبة التي يحيط بها جو مرح ومشع وكأنها ميناء شاسع يمد إلينا ذراعه على شكل مدرج صخري لضمنا. حتى بئر للاّ، وهي بلدة تستمد اسمها من بئر عميق ووفير بالمياه، لم يتغير المنظر في شيء : الحلفاء وحدها فقط تبدو أكثر خضرة وكثافة والطريق أكثر وضوحا على الأرض التي أصبحت نوعا ما صلبة. يظهر

فندق الشيباني، أحد الفنادق الكثيرة المنتشرة في المنطقة، في موقعه على بعد حوالي خمسة عشر كيلومترا من العزيزية وكأنه حارس أمامي للجبل.

ترتفع جدران الفندق المربعة والأكواخ المحيطة به فوق أرض وعرة بها تعاريق صخر كلسي. مع ذلك لازال شق طويل من الطريق مناسبا لمرور السيارات ولا تبدأ عملية الصعود نحو الأعلى بشكل ملموس إلا في بوغفية. بعد أرض وعرة لازال ينمو بينها في نذره عنّاب صغير، تأتي حجارة كلسية كبيرة مبعثرة هنا وهناك: كانت في أول الأمر شظايا بيضاء منفردة ثم اختفت الأرض تقريبا تحت بياض الصخور الكلسية وأصبحت الشظايا جلاميد. ضاق الطريق وتعمق وسط فروع الجبل الأولى. وصلنا إلى أقصى المدرج الصخري: يبدو بوغيلان وسطه تقريبا كريشة خوذة نحاسية ضخمة. في الخلف تنتصب في مظهر موحش لكن غير كئيب جدران الغريان الرمادية الوعرة المتآكلة التي تخترقها أخاديد عميقة وأودية صغيرة متعددة. على اليسار تبدو إحدى أولى المرتفعات المدرجة من بعيد وكأنها أبو الهول؛ ومثله تحتفظ بكنز، إذ تنبع من جنباتها عين لا تنقطع هي عين بوغيلان.

هنا يتوقف الجمالة القادمون من الساحل وفي بطء ديني يجمعون الماء في حفنات أيديهم الخشنة صافيا ويشربونه في جرعات طويلة بعد أن يلقوا ببعض منه أمامهم وكأنهم يقدمون قربانا لإله غير مرئي يحمي سيرهم الطويل.

لكن لا يشرب الجمالة وحدهم وليست العين المختفية خلف ظلال أشجار النخيل القليلة الموجودة بالمكان وأدغال الواد الصغير هي وحدها من يروي العطاشى في بوغيلان، ففي المعسكر الايطالي الصغير الذي أقيم هنا لحماية طريق غريان دعانا الرائد مرسكوتي Marescotti من الفرقة الأربعين للمشاة للشرب. كان يوجد معه في كوخه رجل عربي وقور ومتزن يلتف في عباءة بيضاء. سرعان ما تم التعرف عليه، أنه محمد ستبا، مدير سيدي الشامس وهي قرية قريبة من هناك في اتجاه الجبل.

تم تبادل التحية برفع اليد إلى الجهة كما هو معهود مرفوقة بابتسامة خفيفة من باب اللياقة ثم فتحت زجاجتين إحداها تحتوي على نبيد الفرموت Vermouth والأخرى على مياه معدنية.

نظر محمد ستبا بعين كلها رقة إلى الزجاجة الأولى. فملأ منها الرائد مرسكوتي الأقداح وقدم واحدا منها لمدير سيدي الشامس الذي شربه جرعة واحدة واحتفظ بالقدح

في يده في انتظار المزيد. فوجئت بالأمر فأخذت أفكر في أوامر القرآن وبينما أنا كذلك جعل العربي الوقور قدحا آخر يسلك مسلك الأول.

يا للعجب ! إن محمد ستيبا حقا عربي متقدم: إنه لا يرفض كأس نبيد ولا يغضب في وجه من يقدم له كأسا ثانية وتعلو ابتسامة حميمية شفتيه الغليظتين المنتفختين عند الكأس الثالثة. وهو جد متقدم إلى حد أن تجاوز العرف الإسلامي الصارم وأراد أن يقدم زيجاته لبعض الضباط معرضا نفسه بذلك لذم إخوانه في الدين خاصة شيخ بوغيلان الذي يعتبر عدوا قديما له ولا يتورع في استدارة وجهه ومواربته عند لقاءه.

لسيدي بيير لوتي Pierre Loti ما يحزنه: هوت لبنة أخرى من قصره الفردوسي الإسلامي: حتى العفة العربية بدأت تصبح أسطورة، وهذا أمر أدركته في بوغيلان.

إن بوغيلان حقا جنة صغيرة تقدم الراحة لمن قدم من الصحراء وعليه أن يتأهب لصعود الجبل الشاق. فعند قدم الجدار الصخري العظيم، في ظل واحة صغيرة يسمع خرير دائم لمياه نبع تجري في وشل فضي عذب صافي بين صخور وأدغال جد خضراء. أنها أول مياه نبعية أراها بعد الإقامة لأكثر من سنة في طرابلس ولا يمكن وصف الفرحة التي غمرت عيني وأذني بسببها.

يعتبر هذا النبع أولى العجائب الثلاثة لواد بوغيلان، والثانية عبارة عن أسطورة يستمد منها الوادي اسمه وبما أن غيلان بالعربية هي جمع غول[1] وتعني "الشيطان" فان هذا الوادي إذن يحمل اسم وادي الشياطين وقد استوحى اسمه الرومانتيكي هذا حسب الأسطورة من كون حيوانات خيالية كانت تنزل فيما مضى من ثغرات الجبل ليلا وتزعج النوام بصراخ وخوار وصياح مخيف. لا تفصح الأسطورة عن فصيلة هذه الحيوانات لكن السكان الحاليين لهذا المنخفض يعتقدون حسب زعمهم أنهم رأوا تحت ضوء النجوم والقمر حيوانات تشبه قططا ضخمة وكلابا غريبة حمراء وهي تقترب بحذر من مواقد النار المتقدة ثم تفر صوب قاع الواد موقظة بعويلها صدى أعمق مجاز به. ربما يتعلق الأمر بفهود صغيرة وخنازير برية تجذبها الرائحة البشرية في حين تدفعها نيران مراكز الحراسة إلى الهروب. لقد أطلعني السكان فعلا على جلود إثنين من هذه الخنازير.

أما الأعجوبة الثالثة والأخيرة لبوغيلان فهي الطريق الكبيرة التي تم شقها في هذا الجدار الصخري بقوة الفأس من لدن جنودنا المختصين في تسلق الجبال دوي الأدرع الحديدية

1 - غيلان بالامازيغية تعني الحقل أو الحديقة (المترجم).

والقلوب الأسدية. من نبع بوغيلان، وكشريط أبيض كبير متعرج، تتسلق الطريق الرائعة الجبل في ملتويات عدة صعودا نحو المخروط الحجري لسيدي الشامس المتكون من طبقات أفقية كبيرة وعرة والتي تبدو صعبة المنال. إنه أملس عاري لأن الريح نفسها لم تستطع أن تضع فوقه شيئا من التربة التي يمكن أن تتجذر عليها بذرة نبتة ما.

انتهى جنودنا خلال خمسة عشر يوم فقط من إنجاز معجزة الطريق الدوار على الجدار الجبلي لسيدي الشامس كما تشير إلى ذلك من حين لآخر اللوحات الكلسية التي تركها جنودنا المتسلقون، المنتمون إلى فرق فلتري Feltre، تولمزو Tolmezzo وفستوني Vestone، على حافة الطريق.

قادتنا هذه الطريق بسرعة إلى أول دك فسيح على الجبل حيث يفاجأ القادم من الأسفل برؤية منظر رائع يكمن في غابة أشجار زيتون معمرة لا تنتهي. إنها طرابلس جديدة غير متوقعة وغير منتظرة.

تحققت الرؤية، أفريقيا انسحبت من هنا بكل تجلياتها. النخلة اختفت في بحر الرمال الهائج في الأسفل. إننا الآن نعبر منظرا أبينينيا[1] حقيقيا. في أعلى الجبل تشم بعض أشجار الزيتون المنحنية بفعل الرياح وأشجار تين صغيرة وأدغال الرتم. بعدئذ تبدأ المروج الخضراء التي تكسوها كميات هائلة من أعين صفراء وحمراء لأزهار الأقحوان والخشخاش.

تتواجد على أول أكبر دك للجبل في ارتفاع يبلغ 400 فوق سطح البحر؛ فوق المرتفع الخصب الذي يمتد في موازاة الساحل تقريبا من الشرق إلى الغرب. لقد ميز الجغرافيون بشكل غير سليم بين غريان وجبل نفوسة لأنه ليس هناك أي اختلاف واضح بين هاتين الكتلتين اللتين تشكلان نفس السلسلة وتمتدان من غريان إلى حدود تونس وتتخللهما من حين لآخر أودية عميقة تقريبا دون أن تغير قط من وحدة منظرهما. ولأنها تكونت بفعل التعرية فإن هذه الأودية لا تفصل بين مرتفعات مختلفة، فهي ليست سوى أخاديد كتلة واحدة، أخاديد نفس الكتلة يمكننا تأكيد هذا بإلقاء نظرة على تكوين البلاد ولو بشكل عام -التي تشكل في امتدادها نحو الشرق مرتفعات ترهونة وتبلغ سرت حدود الخمس، وتظهر على الساحل الآخر للخليج الكبير بعد أن تكون قد اختفت تحت سطح البحر، لتشكل قاعدة مرتفع البركة في برقة.

نحن إذن أمام بوابة الجبل، وأمام طرابلس جديدة غير معروفة. تبحث عيني دون جدوى

1 - إحالة على جبال أبينيني ocininneppA الإيطالية التي تمتد من شمالها إلى جنوبها.

عن منتهى الحقول، عن الحد الذي تنتهي عنده أشجار الزيتون الشاحبة اللون. تعبر شاحنتنا - عربة جديدة كانت تنتظرنا على قمة غريان - وهي شاحنتنا الفذة رقم 340 التي سوف أتحدث عنها مرارا خلال عبورنا للجبل - تعبر الآن جادة رائعة وسط أشجار زيتون معمرة في هواء نقي ومعطر ينعش الرئتين. إن الجنة التي وعد الله بها عباده المخلصين توجد هنا في الأعلى.

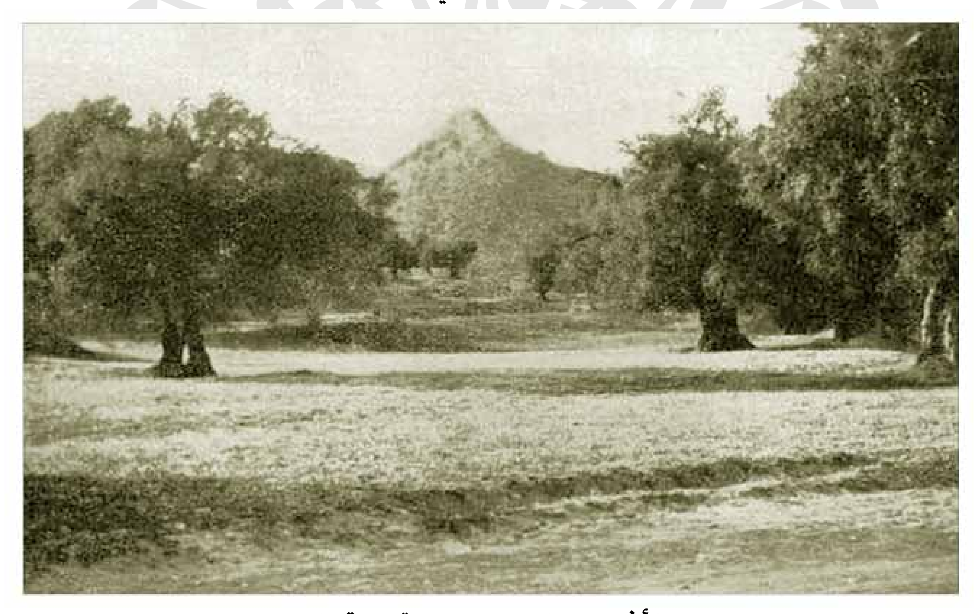


مشهد من جبل غريان

تسير الشاحنة وتقطع أراضي الهضبة الطينية الملونة بالأكسيد؛ تسير عبر الأرض التي كانت إلى غاية البارحة محظورة وما كان الأتراك المكرة ليحرسوها بغيرة كبستان مغلق دون سبب واضح. الآن أدرك لماذا لم يكن يسمح قبل الحرب الأوروبي، للرومي الممقوت بتجاوز الكدية البيضاء الملتهبة تحت أشعة الشمس: لكي يحافظ البخلاء على كنزهم في أمان لم يكونوا يحبون أن يرى منه سوى بؤس رماله المقفرة. كانت عيني لا تزال تحت وقع مفاجأة الرؤية غير المنتظرة لكل هذه الخصوبة. ولكل هذا الغنى المغفل عنه حين ظهرت قرية أولى أمامنا. أنها القواسم حسب الخريطة العسكرية لقيادة طرابلس التي أحملها معي وسوادية حسب ما أكده لي بالإجماع نفر من العرب سألتهم في الطريق. وسواء تعلق الأمر بالقواسم أو سوادية ، فإنه ليست في العمق سوى مجموعات حدبات حمراء أي مجموعة بيوت كهفية تقع على الجهة الجنوبية من جبل تكّوت.

لم تتوقف الشاحنة فبدأت أشجار الزيتون وحقول الشعير تشح. عادت الأرض إلى طبيعتها الحجرية. صعدنا الدك الثاني لجبل غريان مرورا تحت القمة الحادة لتوبي، البركان القديم الخامد. بعد ذلك بقليل بدا أمامي قاتما وضخما قصر غريان المربع فوق مرتفع صخري وهو يطل على منخفض ينتهي عند السهل ويحيط به المدينة.

أنها حقا مدينة غريبة مدينة مناجذ، مقبرة غريبة تتوارى وتختفي تحت الأرض في تعرجات قاتمة لا تنتهي. تبدو البلدة بالنظر إليها من القصر تقريبا كامتداد ثدي كبيرة، حمراء اللون. إن دخول أحد هذه البيوت الكهفية هو شبيه بالنزول في بئر ورغم هذا فإنني أتأهب للقيام بذلك. عبر ممر لولبي ضيق يكاد يختفي على الجدران الترابية، استطعت الوصول إلى قعر الفاهة المربعة حيث تسمح أربع فرجات منخفضة بولوج غرف تحت أرضية مظلمة فسيحة تم حفرها، ربما على امتداد سنين، بعناء في الصخر وفي الأرض. تمثل كل واحدة من هذه الغرف منزلا، وفي كل واحدة منها تعيش أسرة متعددة: يبدو أن حياة المسيحيين الأوائل تتجدد بعد قرون عدة في هذه السراديب.



منظر لأشجار الزيتون على قارعة الطريق

الجو في هذه البيوت - كما فسر لي ذلك العين (الجاسوس) العربي الذي يرافقني في هذا الاستكشاف التحت أرضي- بارد نهارا ودافئ ليلا سواء كان الوقت صيفا أو شتاءا. لن يغير سكان قصر غريان حفرهم هذه حتى مقابل بيوت طرابلس العاصمة البيضاء الجميلة.

يجب علي أن أثق به، لكن بما أني قادم من طرابلس الغرب ولا زالت أجهل كل فوائد الحياة في المغارات وسحرها الغريب فإني أفضل أن أحل ضيفا في ليل الجبل القارس على القصر القديم الذي تكاد تحيط به ظلال المساء البنفسجية القادمة من السهل بشكل كلي.

يبدو أن السماء تنخفض شيئا فشيئا على القصر القديم الخشن. تهب رياح قوية وكأنها ترنحات بؤس ووحدة هذه الليلة الإفريقية.

يظهر على جدران الغرفة الصغيرة القدرة التي تأويني ولعدة مرات اسم خط بغير إحكام ويقول: كركانو بنتفوليو، سلاح المشاة الفرقة 93 بريش ،Brescia,93° Fanteria Gargano Bentivoglio: على واحد من هذه الجدران التي يكسوها نسيج عنكبوت رقيق رسمت بفظاظة عدة خطوط عمودية على الجير. هنا إذن كان يحتجز الجندي كركانو Gargano الذي سقط في أسر الوطنيين منذ الشهر الأول من حملتنا العسكرية. كان يشير بكل خط عمودي منقوش على الجدار إلى كل يوم من أسره في انتظار وصبر.

في نفس فناء القصر تذكر غرفة أخرى بائسة لا يتجاوز طولها أربعة أمتار في كل جانب بأسر بعثة سانفلبو سفورتسا Sanfilippo Sforza أولا ثم بأسر القائد الطيار مويزو Moizo والملازم كوبلي



الفصل الثاني

تناول الشاي في بيت مختار باي

البرد الإفريقي -القصر القديم- مقاومة الأتراك فوق جبل غريان - بلدة غريان - النائب السابق مختار باي - في عقر بيت هذا الأخير- الضيافة الإسلامية- الاسترسال في الحديث- برابرة الجبل الأصليون- طائفة الإباضيين - المجموعة الثانية...

قصر غريان، أبريل.

ببطء شديد مرت الساعات داخل الغرفة التي تأوي هذه الليلة إلى جانبي بردا جبليا قارسا. لم يكن القش والغطاء الذي ألتف بهما كافيين لإعطائي الإحساس بالدفء. لم أعتقد قط -أني أتواجد بعيدا عن إفريقيا- مثلما حدث لي هذه الليلة من إبريل الموشك على الإنتهاء لم أكن أعرف الدرجة التي يشير إليها المقياس الحراري: لابد أنها كانت طبعا تقارب الصفر. ويبدو أن هبات الريح التي كانت تتسرب عبر الحجارة التي لم يعد يشدها الملاط إلى بعضها البعض وعبر النافذة الصغيرة التي لا درفة[1] لها ولا زجاج، وكأنها على وشك أن تهز البناية القديمة برمتها.

بمجرد ما بدأت أولى أضواء النهار باردة ومعتمة هي أيضا تدخل الغرفة مع برد الصباح خرجت من القصر لزيارة البلدة البدائية بشكل أفضل لأن حين وصلنا إليها بالأمس كان المساء قد ألقى بظلاله عليها.

ينتصب القصر القديم قائما لكن دون مهابة، في علو يبلغ 700 متر فوق سطح البحر، على أنف صخري يشرف على ممرات ومنافذ الجبل وهذا ما يجعل إدراك أهميته العسكرية أمرا سهلا. فغريان ممر إجباري لبلوغ الجبل. كتب فرنسي عبر هذا الجزء من الجبل قبيل انفجار الحرب بين الأتراك والايطاليين، خلال تلك الأشهر الأولى من الحرب بروح إخوة لاتينية مؤثرة وبإيمان وطني قوي أن الأتراك الذين كانوا على علم بأن ايطاليا كانت تبحث عن

1 - تسمى بالدارجة الليبية برسيان (المترجم).

مبرر لبدء حرب حاسمة تم الاستعداد لها منذ أمد طويل (؟) قرروا مغادرة طرابلس الغرب عند أول شرارة حرب والانسحاب إلى الجبل، إلى قصر غريان الذي يستحيل على أي جيش ايطالي الوصول إلى مقربة من حصونه دون أن يعرف هزيمة مريرة؛ حيث كانت ستهرع، نظرا للحقد الدفين الذي تكنه ساكنة الجبل للايطاليين، مئات الآلاف من المسلمين من كل أرجاء طرابلس وبلاد الإسلام للحيلولة عبر مقاومة عنيفة وشرسة دون تقدم الجيش الغازي.

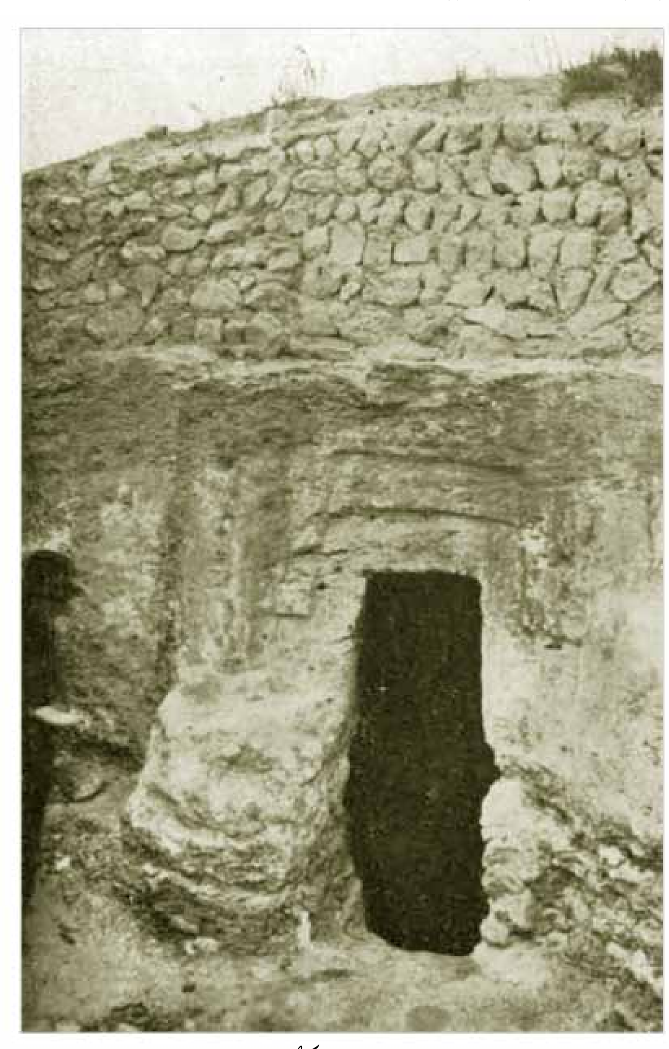


داخل قصر غريان

أعيد النظر في الجدران السوداء للقصر. أنها حقا تحرس أحد الممرات الأساسية للجبل بل أنها تصون أهم بوابة له. فالصخور المتواجدة تحتها تنحدر عموديا لما يقارب مائتي متر: لابد أن القصر كان فيما مضى عش صقر يصعب غزوه. لكن اليوم، أي مقاومة في وجه جيش منظم ومزود بمدفعية يمكنها أن تلقي عليه بقذائفها المروعة حتى من مسافة 12 كيلومترا؟

لا أرى دون القصر بنايات أخرى فوق وجه الأرض سوى بيت المدرسة الصغير، مقر بنك روما، بيت البلاط العثماني سابقا: بيت الجهة، أربعة محلات ومقهى. وقد يبدوا للمرء أن باقي أجزاء المدينة انغمست في الأرض حيث تستمر الحياة بشكل غريب وبنفس الوتيرة. يتجاوز عدد سكان كهوف غريان اثني عشر ألف نسمة. تمضي حياة هؤلاء السكان

في بدائية وسكون. البلدة غنية بالآبار؛ وتربتها خصبة وطينية مما يجعلها تنتج بوفرة الشعير والزيتون والحلفاء والخضروات.



من داخل بيت الحَفْر في غريان

إن أشجار الزيتون في غريان حقا رائعة تبدوا وكأنها تودان تنافس في العظمة نخل السهل العالي. لابد أن بيئة هذه المنطقة تناسبها بشكل كبير خصوصا أن الأهالي لا يهتمون بفلاحتها. نادرا ما ينفثون الأرض حولها. لا يسقونها ولا يشذبون غصونها ولا يسمّدونها. ومع ذلك يجب رؤية أوراق بعض من هذه الأشجار. أنها كثيفة ومتشابكة

أغصانها التي تنكسر تحت ثقل غلتها! على الطريق إلى تغرنّة التي قصدناها بعد الظهيرة لم تكن حقول القمح والشعير اليابسة تقريبا. والتي حان وقت حصادها تبدو لي أقل نظارة.

تبدو تغرنّة، القرية البدائية ذات الحذبات المأوية الحمراء في ظل أشجار الزيتون المعمرة من بعيد على الطريق المنعرج المؤدي من غريان، التي تشكل جزءا من إحياءه، إلى الأصابعة التي تبعد عنه بخمس كيلومترات فقط، تبدو وكأنها بلدة نمل منهمك في العمل. لا أثر لأي مخلوق أدمي فوق مقبرة الأحياء هذه. قد يعتقد أن المكان مهجور لو لم يخرج من البيت الوحيد المرتفع في البلدة - واحد من تلك البنايات المربعة المشيدة بالتربة والحجارة، والتي لا تتوفر على نوافذ خارجية ولها فناء مركزي خشن -للقائنا رجل من الأهالي وقور يضع حولي (عباءة ليبية): أنه مختار باي، رجل ذو نفوذ في الجبل، سبق له أن مثّل غريان في البرلمان العثماني.

إن مختار باي رجل أصيل غليظ بدين له شعر ولحية جد مصففة من لون أشقر يميل إلى الحمرة وهو غير مألوف في هذه المناطق ومع ذلك فهو لا يتوفر على سحنة إسلامية صرفة أساسها من التواضع والرزانة بالأحرى قد يفترض أنه قس وليس رجل سياسة وحكم رغم ما كان له من دور سياسي هام في احتلالنا للجبل. فبمجرد أن تم إبرام السلم مع تركيا أصبح لنا صديقا وفيا وفعالا وقد ساهم عمله الناجع والذكي كثيرا في فتح أبواب غريان أمامنا سلميا وتهيئ سكان الجبل نفسيا للقائنا بشكل ايجابي وبثقة.

صافح مختار باي الجميع مجددا أمام كل واحد منا انحناءة خفيفة مرفوقة بحركة رفع الأصابع إلى الجبهة المعتادة وقد بدت على شفتيه الغليظتين ابتسامة خفيفة حين تعرف علي (سبق لي أن التقيت به في طرابلس العاصمة شهورا خلت في بيت منتصر باشا). بعد هذه التحية قادنا إلى بيته.

انتابني شعور كالذي ينتاب من يدخل ديرا: تسود سكينة عميقة بين جدران ودعامات البيت البيضاء. ينبعث عطر ورد وصندل خفيف من بعض النوافذ الصغيرة المطلة على الفناء والتي تم إغلاقها بأحكام بواسطة تعاريش من خشب أخضر. وسط الفناء الخشن والمتواضع وبداخل حوض من الحجر تلقي شجرة زيتون معمرة بظلالها على البلاط. أبحث في هذه الحديقة المتواضعة وفي الفناء الذي يشكل قلب الدار ويوحي شيئا ما بالحريم والدير معا دون جدوى عن ساكنات البيت اللائي انسحبن مع اقتراب الضيوف إلى

غرف صغيرة منعزلة خلف تلك الشبابيك الخضراء التي ينبعث منها عطر صندل وورد خفيف: هذا ما توجبه الحشمة الإسلامية. نحن لن نرى من هذه النسوة ولو واحدة اليوم ولن نسمع حتى لغطهن. واجب الضيافة يقوم به رب البيت ولا أحد يساعده في ذلك.

أشار علينا مختار باي بالدخول إلى غرفة الاستقبال. وهي عبارة عن غرفة مستطيلة لا نوافذ لها غارقة في هدوء وسكون ديني. يعطي مزيج صارخ من الأثاث والزخرف في بادئ الأمر الانطباع بتواجدنا داخل سوق شرقية (بزار) جد منحطة. فوق زرابي فارسية وحصير بدوي توجد كراسي وأرائك أوروبية مختلفة عن بعضها البعض، تحت ساعة دقاقة مزخرفة توجد نارجيلة مختلفة الألوان؛ على الحائط يوجد بعض النسيج المشرقي ومجموعة من البطاقات المصورة بالألوان، هي بالطبع غالية لمضيفنا. وتجسد ملامح ملوك ايطاليا، منظرا عاما لروما واستانبول، بعض قطع أسطولنا البحري، جنديا قناصا يضع على رأسه ريشة، قبلة شهوانية لعشيقين وأشياء أخرى...

جلسنا حول الغرفة وبمساعدة مترجم بدأنا حديثا بطيئا وصعبا ومختزلا. يتوسط كل جملة وأخرى فترات سكوت طويلة سكون تولد الرغبة في إطراق الجفون والاستسلام للنوم:

أعرب مختار باي عن سعادته جراء احتلال اللواء لكيو بالأمس لجادو وفساطو.

-هكذا- كما يقول- سيكون قريبا مصير كل طرابلس. سترون أن كل القادات العرب سيخرجون للقاء القوات الايطالية بثقة ووفاء وهذا أمر واجب علينا.

تلفظ في بطء بعض الجمل الأخرى لكن بما أن المساء قد حل واختفت حتى البطاقات الملونة العالقة على الحائط في ظل قاتم يوحد الأشياء والأشكال، دخل خادمين من فزان يحملان شمعدانا وطاقما يابانيا للشاي وأنيات من الحلوى.

كما هو من واجب الضيافة فإن مختار باي نفسه هو من هيأ الشاي ومد كلا منا بفنجان ممزوج بقشرة الليمون على الطريقة العربية و فاكهة مفندة وبندق أمريكي وماء ورد.

أخذ المشهد عند هذه النقطة طابع طقس ديني تقريبا ثم استأنف الحاضرون الحديث: ألقى مختار باي خطابا سلسا ليشكرنا على تشريف بيته بزيارتنا. بدأ نسيج المجاملات وأخذت لفيفته تنتقل في الغرفة من جهة إلى أخرى.

في لحظة قال لنا البرلماني العثماني سابقا: إن طرابلس منطقة خصبة وغنية لكن

من سوء الحظ لها ساكنة بدائية وغير متحضرة. وختم قائلا: إنها كامرأة حسناء تضع لباسا رديئا.

أترفتنا الصورة لأنها نوعا ما أوروبية. بلغ الحديث ذروته عندما وصل ضيف آخر نعرفه جميعا: أنه فرحات باي نائب الزاوية سابقا. وهو عربي مؤرب يتكلم بشكل جيد اللغة الفرنسية. سبق له أن زار أوربا وقد انضم إلى صفوفنا منذ يوم إعلان السلم وأصبح وسيلة ناجعة في عملية توغلنا في البلاد وتهدئة الأوضاع.

فرحات باي رجل مثقف ومتعلم يعرف جيد العرب وتركيبتهم النفسية وله في الحديث شجون. وبما أن الكلام وقع على الساكنة الجبلية ولأن الحديث قد طال في ايطاليا. عن برابرة جبل نفوسة الإباضيين. هؤلاء الخوارج الذين قيل عنهم أنهم طلبوا من حكومتنا. عبر ممثلهم القديم سليمان الباروني. الاستقلال السياسي والديني لكل الجبل. فإني طلبت من فرحات باي بعض التوضيحات فهو يعرف جيدا التوزيع الجغرافي للبرابرة الأصليين.

أوضح لي نائب الزاوية سابقا أن مجموعات من البرابرة الأصليين توجد في جبال البركة في برقة وفي كل الجبل الطرابلسي. لكن جبل نفوسة هو بالأساس المركز الديني لطائفة الإباضيين الإسلامية.

روى لي قصة الإباضيين وذكرني بأن يشار بهذا الإسم في أفريقيا الشمالية إلى فرع من الخوارج الذين انفصلوا عن علي. الخليفة الرابع. حينما قبل هذا بالحكومة مع معاوية. أول خليفة أموي. في النصف الأول من القرن الثاني الهجري. انتشر المذهب الإباضي بسرعة في أوساط البرابرة وأصبح العقيدة الوطنية التي استغلت كذريعة في صراع الأفارقة ضد العرب السنيين. من ثم فإن البرابرة كانوا كفارا في الفترة المسيحية إبان حكم الإمبراطورية الرومانية وكفارهم أيضا في ظل الهيمنة العربية الإسلامية. وهذا أمر يجب التأكيد عليه كما أشار إلى ذلك أحد الباحثين الايطاليين المختصين في الدراسات الإفريقية. جوليانو بونتشي Guliano Bonacci . لما له من أهمية تاريخية بالغة. أي أن البرابرة في كل فترات تاريخهم أبانوا خصوصا من خلال مواقفهم الدينية عن روح ثائرة متحررة لا تقبل الخضوع لأي قوة أجنبية وعن ميولات استقلالية باختصار ما عرف "بالخاصية البربرية".

هذا أمر يجب أن يتخذه رواد سياستنا الاستعمارية بعين الاعتبار في كل مرة ينظرون فيها في حكم الساكنة البربرية.

توقف فرحات باي عن الحديث ويبدو الآن وكأنه شارد في بحر من الأفكار. الوقت متأخر. ووجبت العودة إلى قصر غريان. تأهبنا للنهوض والتحية لكن أشارات قوية من مختار باي أرغمتنا على الجلوس من جديد فوق الكراسي والأرائك الريفية.

بعد برهة من ذلك أدركنا سبب إلحاحه: تم توزيع ستة فناجين من الشاي ونحن عشرة فوجب انتظار مجموعة ثانية كما هو الشأن في مطاعم القطارات..



الفصل الثالث

الممر الجديد من بوابة الجبل

إلى يفرن - الرحيل من قصر غريان على ظهر الشاحنة - منبسط الأصابعة- عبر طبيعة عذراء - ككلة والسوادنة - مرور قافلة - الضريح الروماني.

على الطريق إلى يفرن. أبريل.

عند فجر بارد ومكفهر كالليلة الطويلة التي قضيتها يقضا فيما كان سجنا صغيرا داخل قصر غريان استأنفنا المسير.

تسير شاحنتنا من نوع 340 التي يقودها رجل من شمال ايطاليا غريب وصغير وصموت. يبدو كأنه عقدة من العضلات وأعصاب حديدية مثله مثل الشاحنة التي تطيعه- يدعى باولو زنبوني Paolo Zaniboni وينتمي إلى فرقة الهندسة السادسة و يوجد في طرابلس كسائق منذ ثلاثة عشر شهرا- نسير عبر طبيعة تكسوها طبقة كثيفة لؤلؤية من سبيخ : تغطي السحب السماء والضباب يكسو البرية.

مررنا مرة أخرى بتغرنّة حيث لازالت الساكنة نائمة في سراديبها المظلمة، ثم أسفل بقايا القصر الذي يطل من الأعلى على تغرينا تغرنّة ويذكر من بعيد بمدينة أثرية، ثم قرب القلعة البربرية الموحشة المهدمة بتارگوت - الأصابعة وعبر قرية تبادوت التي تشبه مدينة بومبي[1] التي كنت سأعتبرها مقفرة ومهجورة لو لم أبصر خلف ظلمة أبواب مفتوحة جزئيا هيئات بشرية بيضاء لا تتحرك كالتماثيل.

تركنا خلفنا بسرعة أيضا جبل كليبة الذي يتوج القمة الجنوبية للمرتفع الجبلي وتقع على الجهة الشرقية منه القرية التي تحمل نفس اسمه. بعيدا على الجهة اليمنى ترى الرابطة الصغيرة والكبيرة وقمة منطروس الذي ترقب مدخل وادي رمانة. أصل هذا الجبل بركاني ويعود إلى العصر الثلثي.

1 - قرية ايطالية مهجورة بفعل البراكين.

وادي رمانة عبارة عن منبسط جبلي ضيق وعميق يتبع السفح الجنوبي للمرتفع الذي ينتصب عليه قصر غريان. قيل لي إنه يسقى من نبع غزير يتدفق من صخور كلسية، وقد تم توسيع مجراه الذي ينقسم في الأسفل إلى عدة شعب تسقي المدرجات التي تم تشييدها على جنبات الجبل الغنية خاصة بأشجار التين والرمان. من هذه الأخيرة استمدت البلدة اسمها: غير أنني شخصيا لم أوفق في رؤية الماء.

بعد كليبة عبرنا وادي أربعة الغني بالنباتات فوجدنا نفسنا أمام سهل كبير تنعدم فيه الأشجار لكنه مخضر عن آخره بفضل مروج جميلة. نحن هنا أمام منظر شبيه بمناظر صقليا تماما. أنه سهل الأصابعة.

تقتفي شاحنتنا الآن الآثار التي خلفتها القوات الايطالية حديثا. هنا من أقصى حصن صغير « تولمزّو » Tolmezzo تحرك طابور اللواء لكيو أياما قليلة مضت وتقدم على جبهة واسعة بثقة وعزم دون حماية من نيران العدو، فبلغ خنادق الثوار والممرات التحت أرضية لمواقع المراقبة الأمامية للباروني وتجاوزها ليصل دون توقف أو تردد إلى منحدرات الأصابعة حيث كانت المعركة أكثر ضراوة وأكثر شراسة وكان النصر أكثر روعة.

كل السهل يتحدث عن ذلك اليوم المشهود. وتتحدث القبور الحديثة المنتشرة هنا وهناك عن قساوة الدرس؛ كما يتحدث عنها معسكرين الوطنيين اللذين بوغتا وأضرمت فيهما النار والبيت الشبه البدائي مع بقايا التلغراف التركي المكسور، والسكون الذي يخيم الآن فوق كل شيء.

كانت العملية العسكرية التي قادها اللواء لكيو خاطفة وحاسمة وهذا ما تقتضيه الحرب ضد الأفارقة, فقد غادر البرابرة الميدان مفزوعين ومذهولين ولم يتجرأوا على الاستمرار في المقاومة فوق المنحدرات، في الأودية والممرات وعلى قمم جبالهم حيث- كما تعلمنا ذلك الحملات العسكرية الفرنسية الشاقة والطويلة في القبائل الجزائرية- كان بإمكان بنادق قليلة أن تلحق خسائر جسام بجنودنا هذا إن لم توفق في منعها من التقدم لأمد طويل. أما القائد؟ فإنه لم يجد بعد الهزيمة من سبيل سوى الفرار إلى ما وراء الحدود وهذا أمر يدل على أنه لم تكن في جعبته أية وسيلة لتنظيم مقاومة أخرى بعد الصفعة التي تلقاها بالأصابعة في 28 من شهر مارس.

اختفت مرتفعات الأصابعة الخضراء هي أيضا خلفنا. تعبر الشاحنة بصعوبة سهلا جديدا ووعرا تكسوه الأدغال والحجارة.

نعبر الآن أرضا بدائية لا طرق فيها كالبحر. نسير من أفق إلى آخر بعيدا عن العالم

الذي ابتدعته لنفسها مخلوقات متحضرة، بعيدا عن حاضرنا وعن واقعنا بنفس متعة ونفس نشوة من يقطع ذلك المتسع البحري حيث علامات الاستدلال و الإرشاد الوحيدة هي النجوم الخالدة وخطوط العرض والطول. لو لم يكن يخفق من تحتنا بقوة وانتظام محرك من أربعين حصانا لقلت أنه هكذا كان يسافر ملوك المجدّيون ويعقوب، أو أبونا إبراهيم عبر بلاد ما وراء النهرين.

توجد هناك طبيعة عذراء، كما هو محسوس، تعيش في هدوء وفي معزل عن كل شيء وكأن الغزو البشري أمر لا يعنيها. انتابنا شعور بالفخر لمجرد التفكير بأننا أول من قطع الطرقات غير المعبدة لهذه المناطق غداة غزوها وأول من شق بها سبيلا جديدا. هل يوجد من بين الايطاليين من سبقنا إلى هذا باستثناء الشاعر المقدام المغامر دومينيكو توميياتي Domenico Tumiati الذي تملص من التعليمات العسكرية التركية واستطاع سنوات قبلنا الوصول إلى يفرن؟

لم يكن الأتراك المحتالين رغم كسلهم يسمحون لعين الرومي برؤية ودخول المناطق الواقعة خلف بحر الرمال.

كانت حتى الأمس كل المحاولات الأوروبية للدخول إلى الجبل تنتهي بالفشل أمام عقبات جد منيعة، من جانب ايطاليا -استطعت أن أتحقق من الأمر بنفسي ومن الواجب الاعتراف بذلك- فان التجربة الوحيدة للتوغل بداخل طرابلس والتي كللت ببعض النجاح هي تلك التي قامت بها مؤسسة خاصة وهي بنك روما الذي استطاع وسط العديد من الصعوبات اعتمادا على الحيلة مع حاكم طرابلس الماكر أربعة سنوات خلت أن يجعل له ممثلين في غريان، يفرن وفساطو، ممثلين عرب بالطبع لكنهم أهل ثقة وهم أول من أعطى قيمة فوق هذه المرتفعات لاسم وقوة ايطاليا عندما بدءوا بتبادل المنتوجات والنقود بين الساحل والداخل.

حدثني عن هذا في يفرن قائد عربي أيضا ودلني على مخازن البنك التي هاجمها الأتراك ونهبوها عند اندلاع الحرب.

تعود آثارنا الأخرى هنا كلها إلى حقب بعيدة، وهي كلها لصقور روما وما أكثرها. أبرز هذه الآثار وأكثرها تجسيدا للهيمنة الرومانية على هذه الطبيعة المقفرة، هو الضريح الذي نجده بعد 25 كيلومترا من الأصابعة و بعد حوالي 50 من غريان على طريق يفرن بعد التقدم جنوبا لتفادي نزول وصعود الأودية الموجودة بالقرب من ككلة والسوادنة وهما قريتين لهما بعض الأهمية تركناهما على اليمين.

تتبع عدة ضواحي لككلة وهي تخضع من وجهة نظر إدارية لنفوذ يفرن. يبرز قائما في الأفق حصن صغير قديم ومخرب كانت تحرسه حتى أشهر قليلة حامية تركية صغيرة على رأسها نقيب في الجيش. ينتصب هذا الحصن على أعلى قمة تطل على الوادي الشاسع العميق الذي يفصل جغرافيا إن لم نقل جيولوجيا جبل غريان عن جبل يفرن ويشكل ممرا طبيعيا من طرابلس العاصمة إلى فزان.

تقع السوادنة عكس ذلك بعيدا في الأسفل شمال طريق القوافل المؤدية من الأصابعة إلى يفرن تقريبا عند رأس واد الشيخ الكبير الذي نزله وصعده طابور لكيو بخطى صعبة لكن سريعة قدوما من ككلة. تتكون هذه القرية الصغيرة الواقعة على بعد حوالي 25 كيلومترا من الأصابعة من منازل صغيرة تنتشر بالضبط عند رأس الواد المذكور وسط فوضى عارمة لجمع من الكتل الصخرية. وهي غنية بعين ذات ماء عذب وواحة صغيرة بها نباتات نضرة.

عبر وادي وليش الجاف دخلنا إلى سهل تنعدم فيه الأشجار غير أنه مخضر عن آخره ومبقع بأزهار أقحوان صفراء.

توقفت قافلة بطيئة قادمة في اتجاهنا: انتاب الجمال والجمالين إحساس بالخوف لأنهم رأوا لأول مرة في عالمهم هذا دون منازع حيوانا غريبا وجديدا ينفث الدخان ويجري بسرعة. لم أعد أعرف في أولئك العرب - تلك المخلوقات التي صادفناها حتى ذلك الحين في الصحراء - مخلوقات لها سير ثقيل مثلهم، تبدوا وكأن لا وجهة لها، صامتة وكأنها أطياف وتشبه تماثيل في شكلها الأولي. استطاعت شاحنتنا أن تحقق المعجزة، أن تزعزع وتوقظ حتى تلك الأشكال الآدمية الغريبة النائمة، الهادئة الرابطة لجأشها في صمتها الجماعي الشرس. إني أرى عددا منهم يلوحون بأيديهم الهزيلة ويصيحون. توقفت الشاحنة فذهب عنهم الفزع لكن الدهشة لم تفارقهم فتركوا جمالهم ترعى والتفوا حولنا ينظرون إلى الشاحنة الغريبة ويصدرون صيحات حنجرية غريبة، بل تجرأ أحدهم أكثر فأقترب ليلمس إحدى عجلات الشاحنة أو مبردها الساخن.

كنا نستعجل الوصول لأن الثمانين كيلومترا الفاصلة بين قصر غريان ويفرن - مسافة يتطلب قطعها في ايطاليا ساعة أو أكثر بقليل- في هذه المناطق المنعدمة الطرق، بل أسوأ من ذلك، وسط ممرات ضيقة عميقة ترتبت عن المرور البطيء الممعن في القدم للجمال، تصبح سفرا شاقا ومتعبا لا ينتهي لعشر ساعات فأكثر. استأنفنا السير وسط تلويح جديد بالأيادي وهروب فوضوي مفاجئ للجمال. كان اثنان منهما

محملان بالشعير يجريان من الفزع بحماقة أمام الشاحنة ولم يكن هناك من سبيل لإبعادهما عن طريقنا لما يقارب كيلومترا واحدا. هكذا وبعد السهل الجاف. وبعد تجاوز الحقول التي لا تنتهي لأشجار التين البربري الموزعة في صفوف منتظمة فوق أرض تم حرثها حديثا وأتباعا لخط التلغراف التركي بشكل دائم وصلنا إلى مشارف ما يطلق عليه الضريح الروماني.

يبدو هذا الضريح الروماني الذي نمر أسفله وظلال المساء تدفعنا أكثر نحو وجهتنا وكأنه برج مربع ضخم، جانب منه مدمر وبه ثقب كبير في الأعلى مفتوح على السماء التي بدأت تكسوها ألوان بنفسجية بوثيرة سريعة. حسب ما يقال فإن موظفا كبيرا في إدارة روما مات في هذه المستعمرة الإفريقية ودفن بها ورفع هذا الضريح فوق قبره تمجيدا له.

ترتفع بناية الضريح المركبة من كتل حجرية ضخمة جد مربعة ومتراصة بحوالي 12 مترا فوق مرتفع يتجاوز مستوى سطح البحر بثمان مائة متر وعلى بعد حوالي خمسة عشر كيلومترا من يفرن. يبلغ طول قاعدته على الواجهتين الشرقية والغربية 6 أمتار و5,80 على الواجهتين الأخريين، توجد بها غرفة مقبوة يرتفع فوقها طابقين: يبلغ علو الأول 5 أمتار، به أعمدة صغيرة في الزوايا ومزين بإفريز جميل؛ أما الثاني فيبلغ علوه 3,25 مترا. زين بأعمدة كورنثية وله نافذتين، واحدة في الواجهة الشرقية مقوسة ولها دعامات كورنثية خالصة والأخرى على الواجهة الشمالية: ربما كان يوجد بها في الأصل تمثال. يزين البناية في أعلاها إفريز ناتئ يبلغ علوه 1,30 مترا وهو من حجارة كلسية جميلة تم استخراجها بعين المكان واكتسبت مع مرور القرون لونا بنيا جميلا. لا شك في أن الأمر يتعلق بمعلمة رومانية غير أنه لم يبق على الحجارة أية نقوش لتشهد على السنة التي شيد فيها الضريح وعلى الغاية من تشييده. لا شيء يؤكد أنه فعلا قبر لكن خاصياته تجعل هذه الفرضية أكثر مصداقية. لقد ترك المعمرون الرومان عدة معالم فوق الجبل من بروج وقلاع تقع كلها على خط واحد وتشكل الليمس تريبوليتانوس Limes Tripolitanus الذي يمتد من نالوت إلى يفرن، ومن يفرن إلى ترهونة ومنها عبر وادي لبدة إلى لبدة الكبيرة. يمكن إذن لما يسمى بالضريح نظرا لارتفاع موقعه أن يكون مرصدا لقلعة عسكرية كانت بالقرب منه. ويمكن لفرضيتي هذه أن تجد دعما في بقايا قرية أو قلعة كبيرة تعود إلى نفس فترة الضريح وتقع على بعد 400 متر منه على أكمة تكسوها النباتات الخضراء.

كيفما كان الأمر فان بناء هذه المعلمة، سواء كانت ضريحا لأحد أعيان روما أو رمزا لقوتها وهيمنتها، منذ 16 أو 17 قرنا مضت لابد أن فيه تنبوء بأن أبناء روما سيمرون فوق هذه المرتفعات الإفريقية في يوم بعيد والنصر حليفهم



الفصل الرابع

يفرن (عش الصقر)

رعن يفرن- طوق من قرى من العصور الوسطى- آخر أشجار النخيل- غومة. بطل الجبل- الطريقة التي قمع بها الأتراك الثورة- الحلم الطموح للباروني- في بيت الصقر الهارب- رجل ومخلفاته- استقلال الجبل- أسباب مقاومة الجبل- السنيون والإباضيون تأسيس الباروني لدولة الرعب- هزيمة الأهالي في الأصابعة- العمل العسكري للواء لكيو - إخماد الحرب في مدغشقر وفي الجبل: مقارنات تاريخية- لا يجب الوثوق بالباروني... !

قصر يفرن، أبريل.

تبدو البلدة من رعن يفرن باستدارة الظهر للسهل السفلي الذي يقود إلى البحر وكأنها تحيط بها أنسقة عديدة من خنادق طبيعية متراكزة عميقة. تخترق أودية عديدة عميقة وموحشة الأرض التي تحيط من الأعلى بجبل يفرن على شكل قوس وتشقها شاقوليا ممرات متعرجة صخرية. يبدو أن السكان الأوائل اختاروها عن قصد من بين كل مناطق الجبل لبناء بلدة رئيسية هذه المنطقة الأكثر صعوبة وحدة وحجارة. لابد طبعا أن يكون السكان الأصليون لأعشاش الصقور هذه محاربين وليس من الغريب أن يكون البرابرة في منتصف القرن الماضي قد واجهوا بمقاومة بطولية ودموية من فوق هذه الصخور الكلسية والبركانية الأتراك الغزاة ودفعوا بهم مرات عديدة نحو الأسفل وسفكوا دماءهم حتى سالت منها هذه الأودية الجافة.

يشكل صعود الجبل، أو أكثر تدقيقا هبوط وصعود المنحدرات المتعاقبة للوصول إلى قصر يفرن من أم الجرسان، أول قرية في مقاطعة يفرن مركز للحراسة المتقدم الذي يصادف بعد الضريح الروماني، مهمة صعبة رغم أن جنودنا الذين لا يكلون كانوا قد بدأوا أياما بعد غزو الجبل في شق طريق ينعرج بشكل غريب بين الكتل الصخرية في دوران لا ينتهي ومنحدرات مدهشة حتى بلوغ مركز يفرن الحقيقي الممتد على الظهر المنبسط الذي يقود إلى القصر وينتهي عنده.

يبدو هذا المبنى الفسيح الخشن المشيد بالكلس والحصى والتراب المتهالك بفعل الرياح والتقلبات الجوية، الذي تركه الأتراك في حالة لا توصف من الإهمال والوساخة، يبدو بالنظر إليه من مرتفع آخر كأنه ظهر سفينة تمتد مقدمتها الضخمة إلى الخليج الذي يفتحه الجبل في السهل الأصفر الذي تعلوه تموجات خفيفة وتعبره شرائط رقيقة خضراء تشبه سيولا من نباتات نضرة.



قصر يفرن من بعد

تدخل تحت الاسم العام ليفرن، مركز سنجق الجبل الغربي ومركز متصرف فيما مضى، كل القرى الجاثمة بشكل غريب، على جنبات وقمم الكتلة الأساسية للجبل مثل بعض القرى القديمة بمرتفعات الأبرتزو[1]. بالنظر إليها من الأعلى تبدو هذه القرى الصفراء المجتمعة حول وتحت قصر يفرن وكأنها فراخ صغيرة تلتف حول دجاجة حاضنة. في الحقيقة ليست هذه القرى التي تطوق يفرن سوى ضروبا لها تفصلها عنها مسافات جد قصيرة. يظهر أن أهم هذه القرى هي: تاگربوست، القصبات، بگيگيلة، الشگارنة، الگصير. وهي كلها تتشابه وكلها أثارت دهشتي حينما وجدت نفسي أمامها.

تكتمل الصورة الوهمية خصوصا بالنظر إلى هذه القرى عند الغروب حينما تلقي ألياف وردية مذهبة قادمة من الغرب بظلالها المتسقة على كل شيء.

أكيد أن هذه القرى المتحجرة في الجبل تنتمي إلى عصرنا الوسيط، أنها بلدات

1 - أوبرتزو ozzurbA مرتفعات شرقي روما.

فيودالية قديمة لأقاليمنا، تحتضر وتغط في سبات القرون تحت طبقة من غبار جعل منها الزمان قشرة واحدة صلبة.

مما جعل الوهم يكتمل أكثر هناك في الأسفل، تحت القصر، في منتصف الطريق برج مردوم ذو مظهر وسيطي وهناك خلف الوادي قرية تاگربوست الكبيرة التي تتسلق بعناء حتى القمة الحجرية والتي تحرسها قلعة مهدمة ترسم في السماء التي أصبحت بنفسجية خطا أسود أعتقد أني أرى فيه جدارا فاصلا وشرفات. أين رأيت من قبل هذه البلدة؟ ربما في توسكاني Toscana أو ربما في ابروتزو ؟

تبدو تاگربوست كبلدة مقفرة ومهجورة لولا أن عبر الأبواب المفتوحة كأعين قاتمة تتوسط البقعة الصفراء الحمراء الكبيرة، ترى من حين لآخر أطياف بيضاء غريبة وهي تتحرك.

أسفل تاگربوست تقطع واحة صغيرة غير كثيفة تتسلق درجات الجبل الطريق أمام طيف القرون الوسطى. ما سر وجود أشجار النخل تلك هناك في الأسفل؟ لماذا تحاول عبثا تسلق الجبل؟ من انتزعها من موطنها الأصلي، من سهل الرمال الملتهب؟ ربما تريد أن تذكّر بأن إفريقيا لم تمت عند أقدام هذه الجبال وبأن خلف المرتفع الجبلي تمتد بحار رملية وواحات أخرى؟

لم يكن لزاما أن تذكرني أشجار النخل القليلة المريضة تلك بالحقيقة التي أجدني أمامها. فبالقرب مني كان أحدهم يتحدث عن الباروني، عن صقر الجبل الذي كان يود أن يعيد هنا الأعمال البطولية لغومة، المقاتل البربري الذي استطاع رفقة أصحابه رغم قلتهم التصدي لسنوات عديدة للاحتلال التركي وطرد الغزات من هذا الحصن سنة 1855م.

لازال الحديث ساريا في الجبل عن غومة وأعماله البطولية ولازال أحفاد هذا البطل الذي تحول إلى أسطورة يعيشون في يفرن. لم يمضي سوى نصف قرن أو أكثر بقليل عن حكايته ورغم ذلك تبدو وكأنها تعود إلى القرون الوسطى.

في سنة 1831 رفع عبد الجليل، قائد أولاد سليمان لواء الثورة في طرابلس واستولى على فزان. اعترض ثوار جبل غريان طريق ابني حاكم طرابلس الغرب، يوسف القرمانلي الشهير، اللذين أوفدهما أبوهما لقتال عبد الجليل وأرغموهما على العودة من حيث أتيا. وكأن هذا الوضع في حد ذاته غير كاف فإنه بالضبط في تلك الأيام تقدم الأميرال البريطاني دونداس Dundas رفقة فرقة عسكرية إلى ساحل طرابلس وطلب من يوسف

أداء مائتي ألف قرش اسباني كتعويض عن الخسارة التي تعرض لها بعض الرعايا الإنجليز بسبب القرصنة العربية. كان من غير الممكن أن يدفع الباشا مبلغا كهذا: كان بيت المال مستنزف إلى درجة أن يوسف كان قد اضطر قبل ذلك إلى بيع المدافع البرونزية التي تزين قلعة المدينة لبعض التجار المسيحيين. في هذا الظرف الحرج اتخذ قرارا سيئا يتمثل في فرض ضريبة حرب على سكان المنشية الذين كانوا منذ القدم معفيين دائما من كل الضرائب مقابل الخدمة العسكرية التي كانت إجبارية بالنسبة إليهم. كانت هذه الضريبة بمثابة شرارة للثورة: فقد تم الإعلان عن الإطاحة بيوسف وعين خلفا له علي أمير القرمانليين، جد حسونة باشا الحالي. كانت المقاومة بكل أشكالها غير مجدية فوجد يوسف نفسه مجبرا على التنحي لصالح علي.

قليلا بعد ذلك تبنى عبد الجليل الذي كان قد رفع لواء الثورة واستولى على فزان قضية علي باشا كما تبناها أيضا قائد ثوار الجبل غومة المرعب. كان علي باشا سيبقى حاكما لطرابلس لولا أن تركيا، ربما بإيعاز من بريطانيا، لم تستغل الفرصة للتدخل تحت ذريعة وضع حد للحرب الأهلية بحكم السلطة التي يمارسها سلطان اسطنبول بصفته الخليفة الأكبر على معظم الشعوب التي تدين بدين محمد (ص) والتي كانت أسرة القرمانلي تعترف بها دائما. تقدم أسطول تركي يعد على ظهره 6000 جنديا إلى مشارف طرابلس الغرب بقيادة نجيب باشا وتظاهر بأنه جاء لمساعدة علي القرمانلي ضد الثوار. سقط علي بسذاجة كبيرة في الفخ إذ أذن للأتراك بالنزول واحتلال المواقع المحصنة وراح يزور نجيب باشا على ظهر سفينته فقام هذا بإذن من السلطان بحبسه وخلعه وإرساله إلى إسطنبول. في اليوم نفسه أخذ نجيب باشا بزمام الأمر في طرابلس كحاكم لها.

خلال السنوات الأولى من الهيمنة التركية تناوب عدة باشاوات على حكم طرابلس ربما لأن حكومة السلطان كانت تخشى أن يعلنوا استقلالهم عنها. فبعد ثلاثة أشهر فقط، في شهر أغسطس من سنة 1835م، خلف محمد رايت. نجيب باشا وقام بنقل كل الأمراء المتبقين من أسرة القرمانلي إلى اسطنبول. سنة بعد ذلك عين ظاهر باشا حاكما على طرابلس وقد أزعج هذا كثيرا بدسائسه الفرنسيين في تونس. في أغسطس من سنة 1838م تقلد مهام الحاكم في طرابلس حسن باشا. تجدر الإشارة إلى أنه حتى آنذاك لم يكن الاحتلال التركي يتجاوز الساحل وكل محاولات التوغل في الجبل باءت بالفشل بسبب مقاومة الساكنة الجبلية لها.

لوضع حد للثورة فكر حسن في الاعتراف بغومة كقائد للجبل وبعبد الجليل كسيد على فزان غير أنه فرض عليهما إتاوة تتمثل في 5000 قرش اسباني بالنسبة للأول و25000 بالنسبة الثاني سنويا. كان سيتم الاتفاق لولا أن حسن بجشعه طلب منهما دفع المستحقات السابقة. تم استئناف المفاوضات بنفس الشروط في سنة 1840 من لدن الحاكم الجديد عسكر باشا لكن عندما تعلق الأمر بالدفع رفض القائدين أن يفيا بوعدهما. لجأ الأتراك إلى السلاح ورغم استفادتهم من مزايا جيش نظامي منضبط ومزود بالمدفعية ضد عصابات غير منتظمة وغير مسلحة بالشكل المطلوب فإن الثوار الذين كان يقودهم غومة بفضل معرفتهم الجيدة بالمنطقة دافعوا عن مواقعهم ببسالة ولوقت طويل إلى درجة أن الباشا اضطر إلى استعمال الحيلة لإخضاعهم.

كان أول من سقط في الفخ هو عبد الجليل. فقد دعاه القنصل البريطاني إلى مقابلة خاصة بالقرب من مصراتة ووعده أن حكومته سوف تقدم له دعمها إذا ما تعهد بالعمل على وقف تجارة العبيد في فزان. نزل عبد الجليل إلى الساحل فاستغل الأتراك الفرصة لمهاجمة معسكره، وعندما عاد إليه بعد لقاءه للقنصل الإنجليزي ألقوا عليه القبض وضربوا رأسه وتركوها عالقة لعدة أيام على الباب الرئيسي لمدينة طرابلس.

أخضع الباشا الجديد، محمد إميد الذي خلف عسكر في سنة 1842، فزان وواحة غدامس بسهولة وركز بعد ذلك كل جهوده ضد غومة الذي كان هو وجنده يستقرون بالجبل ويتخذون من يفرن مقرا عاما لهم. كان من العبث التطلع إلى هزيمته بالقوة. فأودية الجبل العميقة قد لبست الحمرة كثيرا من دماء الأتراك فكان لزاما اللجوء إلى السلاح الآخر الذي هو الغدر. دعي غومة إلى اجتماع في طرابلس من لدن الباشا الذي أعطاه وعدا بالأمان وبثقة عمياء حضر المقاتل البربري إلى المدينة فأسر وقيد على ظهر سفينة إلى استانبول ومن ثمة انقطع خبره بشكل نهائي. ربما تعرف مياه البوسفور آخر صفحات حياته.

لكن أسر غومة لا يعني بعد نهاية المقاومة المسلحة في الجبل. فأتباعه لم يستسلموا مما اضطر اللواء أحمد باشا الذي بعثه الحاكم للقضاء عليهم إلى اللجوء إلى الحيلة المعهودة: استدعى قادات الثوار إلى محادثات لتحديد الشروط النهائية للسلام فألقى عليهم القبض وضرب رؤوسهم الستين وحملها إلى طرابلس حيث تم وضعها على ستين رمحا فوق أسوار القلعة. وقد تم العثور على جماجمهم أشهرا قليلة بعد احتلالنا للبلاد من لدن جنود ايطاليين اثر أعمال حفر تحت الأسوار الصلبة للقلعة.

هكذا إذن بقوة السلاح والخيانة وجدت قبائل الجبل المحاربة نفسها مرغمة على الخضوع، مما فتح المجال للأتراك لتشييد العديد من الحصون فوق هذه المرتفعات.

تمنى سليمان الباروني، النائب البربري السابق، في حلم طموح إلى المجد والهيمنة أن يعيد هنا أمجاد غومة صقر الجبل لكن لكونه أكثر خبثا ودهاء منه قوة، أكثر خداعا منه عبقرية فإن القوى خانته.

كانت يفرن - التي تكاد تنساه- حتى البارحة معقله الحصين ولازالت تحتفظ لسلطانه القصير الأمد بآثار واضحة.

اتخذ مقره العام هنا منذ رحيل الأتراك في شهر نوفمبر المنصرم، وهنا ركز دفاعاته وجمع صفوف الثوار ونسج خيوط شبكة دسائسه الأكثر تعقيدا.

دفعتني رغبة شديدة في الاستطلاع فطلبت من النقيب فتالي، المقيم الحالي بيفرن، أن يرافقني إلى المكان الذي كان حتى أيام قليلة آخر مأوى للثائر المشهور. تمت تلبية رغبتي بلباقة وبلطف ورافقنا في هذه الزيارة فرحات باي، النائب الأسبق للزاوية الذي التحق بنا بعد وقت وجيز من قصر غريان. رافقنا أيضا الشاب، محمد غالب الكيب، جبلي سبق له أن شغل منصب ملازم في الجيش التركي وقد التحق عبر مغامرات دراماتيكية بالمعسكر الايطالي.

يشكل مسكن الباروني جزاءا من المدينة الصغيرة التي تتركز بالقرب من القصر وتتكون من منازل صغيرة شيدت على الطريقة الأوربية لها أبواب ومصارع خضراء وجدرانها مطلية بالجير وهي الوحيدة من نوعها التي رأيتها في الجبل. ويقع هذا المسكن في آخر زقاق ضيق ينتهي فجأة عند حافة واد عميق قبالة تاگربوست.

آه ! كم يبدو بئيسا وضيقا بلاط الطاغية الذي أرادت ايطاليا في لحظة رفعه إلى فخفخة الشهرة واعتبرته تقريبا كملك... يشكل دور أرضي جد صغير ودور علوي جد منخفض به أربع أو خمس نوافذ يسدها شباك خشبي أخضر على الطريقة الإسلامية البيت الذي وضعه أحد الأقارب في الأشهر الأخيرة رهن إشارة الباروني.

دخلنا إلي البيت يتقدمنا فرحات باي وصعدنا السلم المتأرجح لنجد أنفسنا في الشقة. لا يوجد بها سوى ثلاثة غرف صغيرة بسيطة وجد متسخة: بهو من مترين على الجانب، غرفة للأكل وأخرى للنوم وهي كلها على حالها كما تركها جلالته أياما قبل الهزيمة التي تلقاها في الأصابعة.

ليس ما أحس به بالطبع تعاطفا أو دهشة وأنا اليوم أجدني داخل الغرفة الضيقة المدهونة بفرشة خشنة وسط السرير الحديدي غير المنضود وخزانة قائد الجبل الطاغية المكسورة. يبدو كل شيء حولي بئيسا كما كان الحلم الأناني للثائر المهزوم. -في هذه الخزانة الحديدية (خزانة حديدية فرنسية جد عصرية)- كان يوضح لي أثناء ذلك النقيب فتالي Vitale- وجدنا ورقة نقدية من فئة 50 ليرة فرنسية، بعض الفرنكات الفضية التونسية، المراسلات المتعلقة بالمفاوضات مع الايطاليين ومحفظتين عربيتين، تحتوي إحداها على قطعة نقدية ذهبية بقيمة 5 ليرات تركية وواحدة من تلك القلائد الدينية التي يضعها الكثير من جنودنا على صدورهم. وجدنا في الغرفة أيضا طربوش الباروني وخاتم والده الشيخ المريض الذي كان يعيش حتى أيام قليلة مضت في نالوت.



يفرن من برج القصر

لكنني أعرف أن هذه ليست النقود الوحيدة التي تركها الباروني في يفرن أثناء هروبه منها على وجه السرعة: في البناية التي كان يستعملها كمكتب ودار للمحفوظات عثر جنودنا على كيسين بهما ما يقارب 15000 ليرة من الذهب والفضة، وهذه نقود انتزعها، فيما يبدو، النائب الأسبق لجادو من القادات الذين أسرهم عند عودتهم من طرابلس حيث كانوا يقدمون الولاء لايطاليا.

كان الباروني عنيفا وشرسا في أحقاده. أطلعني محمد غالب الكيب، الملازم العربي في الجيش التركي سابقا، الذي انضم إلينا بعد أداء قسم الولاء والذي كان قد سقط في

أيدي أتباع الباروني ديسمبر الماضي قرب أجلا. أطلعني على مذكرة وعين منها صفحة ترجمها لي فرحات باي : تحت أية قرآنية كتبها الشاب العربي توجد كلمات أخرى كتبها ووقع عليها الباروني نفسه وهي تقول بالحرف: "أنت كلب ملعون، خائن ومرتد حل بك عذاب الله وعذابي".

كان الايطاليون يتحدثون ويكتبون عن الباروني وكأنه شخصية أسطورية تحيط بها هالة من الغرابة والرومانسية.

علمت عنه الكثير في يفرن مباشرة من أفواه الذين عرفوه كما علمت الكثير عن أعماله. يبلغ من العمر اليوم أكثر من أربعين سنة بقليل وهو قصير القامة وبدين الجسد. كان منذ 98، السنة التي تم فيها الإعلان عن الدستور التركي، يشغل منصب نائب عن دائرة جادو وفساطو. وكان هو من أعلن في تلك السنة انطلاقا من قصر حاكم طرابلس العاصمة في خطاب ليبيرالي بهيج حلول النظام الجديد. هو رجل ذو فطنة لا تناقش على حظ من الثقافة وذو روح متعصبة وعنيدة، لا يخضع لسلطة أحد. وفوق كل شيء طموح. استطاع في السنوات الأخيرة أن يفرض ذاته إلى حد ما على الأتراك أنفسهم وأن يكتسب احترام الجبل كله من غريان حتى نالوت رغم أنه لم يكن يتوفر على أموال طائلة ولم تكن له قبائل تابعة له بشكل مباشر.

كما قلت، هو أكثر طموحا منه تعصبا، عرف عند اندلاع الحرب كيف يصبح في وقت وجيز محركا للمقاومة الوطنية التركية في طرابلس ويجمع صفوف المقاومة الأهلية المشتتة في قبضة يده.

تفوق الباروني على الأتراك أنفسهم وأصبح يشكل تهديدا لهم بعد توقيع معاهدة السلام، بل أرغمهم على التفاوض معه لمغادرة البلاد وحملهم على تسليمه كل مخازن الأسلحة والذخيرة الموجودة في الجبل وكميات كبيرة من المؤونة ودفع فدية هامة على الأسرى الايطاليين المحبوسين في يفرن وفساطو.

لقد سبقت الإشارة إلى طموح الباروني، وهناك أحداث كثيرة تعود حتى إلى ما قبل الحرب تثبت أن لا حدود لهذا الطموح...

كان الأمر إذن عبارة عن ترشيح النائب الأسبق في البرلمان التركي نفسه لقيادة الجبل وقد دشن حملته الانتخابية الفريدة من نوعها قبل الأوان بالنهب والاختطاف والسرقة والهجومات الليلية ضد مواقعنا العسكرية. وكان كل هذا مرفوقا بصوت البنادق.

من المفيد الوقوف عند هذا الحد على أسباب المقاومة في الجبل ويجب البحث عنها بالأساس في الانقسام العرقي والديني لساكنة طرابلس وهو الانقسام الذي أشرنا إليه في فصل آخر من هذا الكتاب.

تشكل طائفتان رئيستان الساكنة المسلمة لطرابلس: طائفة السنيون وطائفة الإباضيون. لا توجد اختلافات جوهرية بين هاتين الطائفتين ولا يفصل بينهما سوى أمور شكلية فقط.

على سبيل المثال، يؤمن السنيون بأن الجنة بعد الموت هي لكل الناس بينما يخص بها الإباضيون الفضلاء؛ للسنيين طريقة خاصة في الصلاة وللإباضيين طريقتهم إلى آخره. لكن هناك أمر أكثر أهمية، تميز أكثر وضوحا، هوة أكثر عمقا، هناك انقسام عرقي بين هؤلاء وأولئك: فالسنيون هم أحفاد العرب الغزات والإباضيون هم أحفاد البرابرة الدين انكسروا وزج بهم نحو الداخل. الآن ولأن الجبل يسكنه بالأساس لأسباب وراثية الإباضيون، وخوفا من طردهم مرة أخرى نحو الداخل ونوعا ما حقدا منهم على سنيي السهل الذين قدموا لنا ولاءهم، يفهم بسهولة كيف أن المد العسكري الايطالي واجه مقاومة أخيرة فوق هذا الجبل وكيف أن قبائل عدة بايعت قائدا ذو نفوذ استطاع بالخديعة والاحتيال أن يقنعها بأن الجنود الايطاليين سوف يلقى بهم في البحر يوما ما ويسطع نجم الاستقلال على طرابلس.

لكن بإخضاع كل القبائل الرئيسة للسهل، ترهونة، ورشفانة، مسلاته، جنزور، الزاوية والخمس وغريان أيضا. وبفتح بوابة الجبل فكر حاكم طرابلس أنه يمكن الوصول إلى نفس النتيجة في الجبل وذلك باستقطاب القاداة الوازنين في الجبل شيئا فشيئا لكي تضعف شوكة المقاومة الملتهبة هناك. نجحت المكاتب السياسية بالعزيزية وقصر غريان في هذه الغاية وذلك بعون ملموس من قادات البلدات التي سبق احتلالها. بموازاة مع ذلك كان أعيان آخرون من يفرن وجادو - فساطو يتقدمون من تلقاء أنفسهم إلى الزاوية ومنها إلى طرابلس لإعلان ولائهم للايطاليين. كان أيضا من بين أولئك الذين جاءونا بعض الإباضيين.

لكن لا يمكن القول مع ذلك بأن وضع الجبل قد اتضح لأن القادة الذين قدموا إلى طرابلس تركوه في قبضة الباروني المنزعج والذي فطن بالخطر الذي يتهدد بنيانه فاستغل الفرصة دون تردد لحبس أزواج هؤلاء القادة ونزع السلاح من أتباعهم وتأسيس فرقة جديدة من الزبيطة (الحرس التركي) وهي نوع من الحرس الإمبراطوري الخاص. عند

عودة القادة الذين نزلوا إلى طرابلس إلى الجبل أمر بحبسهم وزج بهم في سجن يفرن.

هكذا كان روبسبيير[1] الجبل الصغير هذا يؤسس لمملكة الرعب في يفرن. لم تكن قواته بالطبع ذات أهمية لكن كانت تعد ضمن أتباعه أحد قبائل الجنوب الأكثر قتالية، ألا وهي قبيلة أولاد بوسيف المتمركزين في مزدة والذين يلقون التقدير في كل مكان كمحاربين شجعان ويعتبرون تقريبا كمجاهدين. لم يكن عدد هؤلاء أكثر من 500 نفر وكان الباروني يجهد نفسه لكسب ودهم وولائهم بالامتيازات والعطايا من كل نوع. ورغم أن أولاد بوسيف يكنون لنا العداوة فإنهم لم يكونوا دائما يؤيدون سياسة الباروني، بل احتشدوا مرة ضده علنا عندما لم يف النائب التركي السابق بوعده وحاول حبس عدوه اللدود فكيني قائمقام جادو - فساطو الذي كان قد جاء إلى يفرن بضمان شخصي من محمد بن عبد الله أحد قادات قبيلة مزدة المحاربة.

يجدر بنا إثارة الانتباه إلى أنه بينما كان الباروني يدخل في مفاوضات مع مبعوثي الحكومة الايطالية, أدركنا أن هناك تضييع للوقت من جهتنا, وبما أن عمليات النهب التي تستهدفنا كانت تتزايد يوما بعد يوم فإن القيادة العسكرية في طرابلس قطعت الطريق أمام كل شك وتردد ومراوغات وأمرت اللواء لكيو لبدء صبيحة عيد الفصح تلك الحملة الحاسمة التي تم التهيئ لها منذ شهرين لكن في آخر لحظة، بالضبط يوما قبل تقدم جيوشنا وصلت برقية من روما تعلق العمليات لفسح المجال أمام مفاوضات غير سديدة وهزلية تلعب فيها تونس دور الوسيط مع الثائر الذي كان يهزأ بنا.

في ذلك اليوم تم هزم رجال الباروني الأربعة آلاف أي أولاد بوسيف، المشاشة، والسبع مائة جبلي، الخمس مائة ورفلي التابعين للقائم مقام عبد النبي الذي أطحنا به، تم هزمهم في الأصابعة ومنطروس وولوا مدبرين. لما رأى سيد يفرن الذي كان دائما خلال المعركة في منأى عن نيراننا أن آخر خدعه الحربية والمتمثلة في وقف تقدم اللواء لكيو بذريعة استئناف المفاوضات فشلت هي أيضا، إنسحب من السوادنة إلى يفرن على صهوة جواده ولم يستطع حتى الدخول إلى هذا الكوخ لجمع أغراضه بل التف في عباءة حتى لا يعرف ودائما على ظهر فرسه، كطيف نيروني جديد، متبوعا بزمرة من أتباعه الأوفياء فر نحو أراضيه في كباو مديرية نالوت ومنها توجه إلى الحدود التونسية. في27 مارس دخل طابور لكيو إلى قلعة الصقر الهارب منتصرا وتلقى الطاعة الكاملة من كل ساكنة المنطقة التي تحررت من قيود مطامع الباروني.

1 - ماكسميليان روبسبير erreipseboR (8571 - 4971)، محام فرنسي وزعيم سياسي. أصبح أحد أهم الشخصيات المؤثرة في الثورة الفرنسية.

هكذا إذن تم وبشكل نهائي، أولا من لدن جنودنا الشجعان الذين عرفوا القضاء بعمليات خاطفة وحاسمة على الحركة التي بدأها الباروني ثم من لدن ناخبي الجبل نفسهم، أي من لدن النهاب والسراق البرابرة الذين انضموا إلى النائب الأسبق في محاولته الطائشة و سارعوا إلى التخلي عنه بعد الدرس القاسي في الأصابعة؛ تم رفض ترشيح الباروني النابع من تخمين سيء لفتح المجال أمام هذا للتفكير الآن، في خمول الضيافة المفروضة عليه بالذهيبات أو في بن گردان، في حتمية زوال وفناء كل ما هو بشري.

لنترك الباروني يواجه القدر الذي اختاره لنفسه ولنتوقف لحظة للنظر في السرعة التي استطاع بها اللواء لكيو، بعد الأحداث العسكرية السعيدة للأصابعة ودون قتال، أن يغزو ويدخل إلى البلدات الرئيسة في جبل نفوسة. إن مثل هذا العمل العسكري الذي قيل عنه بإنصاف أنه خاطف وحاسم هو ما يجب تبنيه ضد الشعوب الإفريقية. غير أن الأمور ليست بهذه السهولة كما علمنا ذلك كبار الجنود السياسيين الذين غزوا لأوطانهم ووطدوا الأمن بشكل نهائي في مستعمرات جد شاسعة. وكما نبهنا إلى ذلك بشكل خاص الجنرال گاليني Gallieni الذي ربط اسمه رباطا وثيقا بالعمل الاستعماري الكبير المتمثل في توطيد الأمن في مدغشقر ذلك اللواء الذي يقول الفرنسيون بفخر عن التعليمات الصادرة عنه خلال السنوات الأربعة التي قضاها في حكم مدغشقر، بخصوص تنظيم عمل الأهالي، نزع ملكية الدولة، استغلال المناجم، الأعمال العمومية إلى آخره أنها تشكل مرجعية رائعة في الحقل المعرفي الاستعماري. لنتوقف فقط عند العمل السياسي والعسكري الذي باشره عندما اندلعت ثورة هوفا Hova في مدغشقر بعد فترة وجيزة عن الاتفاقية التي فرضها اللواء دوشسن Duchesne على الملكة رنافالو Ranavalo ، وذلك اثر دخول الطابور الخفيف الذي يقوده هذا الأخير إلى تننريفا Tananariva (30 سبتمبر 1908). تشبه تلك الأحداث في أشياء كثيرة الأحداث التي عرفها الجبل مؤخرا ويمكنها أن تكون مصدر إلهام لنا اليوم كما في غد غير بعيد.

يجب على أولئك الذين يتولون مصير مستعمراتنا الجديدة، أولئك الذين يجب عليهم باسم ايطاليا، سواء كانوا عسكريين أو مدنيين، أن يتمموا العمل الذي تم تدشينه، يجب عليهم اليوم الرجوع إلى الدوريات السياسية التي كان يوجهها اللواء كاليني إلى القادة العسكريين بالدوائر والمقاطعات التابعة لنفوذه. سوف يتلقون بصوت من كان جنديا باسلا وحاكما كبيرا المبادئ الراسخة التي يجب أن تقود خطوات الجيوش والموظفين الموجهين إلى غزو مستعمرات أهلة بالسكان وإخماد نيران الفتنة بها؛ سوف

يدركون نوعية العلاقات التي يجب أن تسري بين العمل السياسي والعمل العسكري حتى لا يكونا متناقضين مختلفين ومتناحرين وإنما متعاونين ومتكاملين ومتواطئين لتحقيق نفس الغاية.[1]

إن لمختلف مراحل أحداث مدغشقر نفس مسار أحداث الجبل. يرد على سبيل المثال في "إخماد الفتنة في مدغشقر: "كانت النزعة الحربية لعصابات الثوار تتقوى شيئا فشيئا وكانت تدخل مع جيوشنا في معارك عديدة وتستنزفها باستمرار؛ كانت مجهوداتنا غير مثمرة لأن هذا العدو الذي يتحرك باستمرار كان يراوغ ضرباتنا متفاديا بذلك الصدمات الحاسمة ليعود بعد مرور طوار بنا إلى احتلال المواقع التي أخرج منها والتي يهدد انطلاقا منها وبشكل متواصل المسافرين العزل والقوافل غير المحروسة بما فيه الكفاية". هذا ما كان يحدث تقريبا في ضواحي طرابلس وفوق منحدرات الجبل.

لنرى الآن كيف استطاع اللواء كالييني أن يحل هذه المعضلة وأخريات أساسية مرتبطة بغزو وإخماد الفتنة في مستعمرة مدغشقر.

أثبتت ثورة هوفا في الإميرن Emyrne الذي تعتبر تننريفا عاصمة مدغشقر مركزا له، والطرق التي واجهها بها الفرنسيون أهمية المواقع المحصنة والمحروسة بشكل جيد إلى جانب العمليات العسكرية القوية التي يتذكرها الأهالي لوقت طويل. إن الطريقة التي تبعها اللواء كالييني لإخماد الفتنة في إميرن كان محورها هو القضاء على ازدواجية الاختصاص التي سنها مرسوم سابق وتعويضها بوحدة التسيير الإداري للمستعمرة، ويتم بلوغ هذه الوحدة الأساسية في كل مراتب التنظيم الإداري والعسكري بتركيز كل النفوذ السياسي والإداري والعسكري في أيدي قادة الدوائر والمقاطعات. كان الضباط أو الإداريون الذين يشرفون على الأقسام الإدارية يتوفرون على كل الإمكانيات، كانت لهم السلطة على القادة المحليين وكانوا مسؤولين أمام المقيم العام على حسن سير الأعمال. ركز إذن الجينرال كالييني في يده خلال الفترة الحرجة التي كانت تمر منها المستعمرة إدارة كل الأعمال سواء منها المدنية أو العسكرية. بعد تحقيق تقدم ايجابي على مستوى توطيد الأمن وأصدر أمرا آخر يستجيب بشكل جيد لمتطلبات الاحتلال ويتمثل في خلق وحدات إدارية جديدة لها صلاحيات عسكرية وإدارية. عندما تعلق الأمر بالتوغل في المناطق الداخلية سلم كالييني لقادة المناطق المختلفة السلطات الضرورية التي تخولهم استعمال الإمكانيات المحلية، العسكرية منها والسياسية، لتحقيق أهدافهم.

هذا والى جانب الاستقلالية الكبيرة التي متع بها قادته العسكريين طبق بعقلانية

1 - جولياني بوناتشي: الايطاليون فوق الجبل، روما، 3191.

مبدأ السياسة العسكرية في سياسة الاحتلال الذي يشجب اجتماعات البلاط الذي يريد أن يتحكم من العاصمة في تحركات القادة العسكريين أمام العدو؛ وهو المبدأ الذي بنى عليه نيكولا مكيافيلي Nicola Machiavelli معلمة رائعة تتحدى آثار القرون في ذلك الفصل من خطاباته "خطابات حول الكتب العشر من تاريخ روما لتيتوليفيو Tito Livio" الذي يحمل العنوان التالي: "كيف كان الرومان يعطون لقادة جيوشهم انتدابات حرة" ويؤسس للنظرية الحديثة حول العلاقات التي يجب أن تربط الحكومة المركزية بقادة الجيوش في حالة الحرب.

ربما إن حديثي عن الفرنسيين في مدغشقر قد طال. فلنعد إذن إلى البارونى والايطاليين فوق الجبل. هكذا سيتاح لنا رويدا رويدا مقارنة المبادئ التي وضعها الجينرال الفرنسي للتوغل في مدغشقر وإخماد الحرب بها والتدابير التي اتخذها الايطاليون في طرابلس.

إن العمل بواسطة القوة الذي أطلق عليه ڤالييني "العمل البطئ" هو الذي بدأ به جنودنا بنجاح في المناطق الأقل توترا بطرابلس: في جبل غريان، بين أهالي ورفلة وفي سرت. هناك لا يمكن التنكر لمكتسبات غزونا الحضاري، الدليل على هذا تقديم الولاء لحاكم طرابلس الغرب من لدن العديد من قادة مناطق بعيدة قادهم مؤخرا إلى العاصمة مقيموا ورفلة وسرت. يجب التمييز في كل أفريقيا الشمالية كما هو الشأن في كل البلدان التي اجتاحتها موجة الغزو العربي بين الساكنة المستقرة التي تفلح الواحات والساكنة الرحالة التي تهتم أساسا بالرعي؛ الأولى أقل توحشا وقابلة للغزو والهدنة والهيمنة الأوروبية والثانية يصعب التحكم فيها لكنها سهلة الخضوع. اثبت ليون كيتاني Leone Caetani في دراساته لتاريخ الشرق أن التمييز بهذا الشكل بين هذين العنصرين كان واضحا حتى في بلاد العرب منذ زمن الرسول محمد (ص) الذي كان في صراع دائم خلال مقامه في المدينة مع بدو الأرياف المجاورة الذين كانوا منذ البداية أكثر بكثير تعنتا أمام الثورة الدينية التي جاء بها النبي المكي (ص). غير أنه لما بدأت الفتوحات الإسلامية الكبرى أصبح البدو الدين انكسرت شوكتهم يشكلون القوة الضارية ضمن الجيوش الإسلامية. لقد كان الجهاد متنفسا صحيا لحماستهم وأهوائهم وروحهم المهتاجة.

لا احد يمكنه اليوم أن يشك في الطبع الفوضوي، اللااجتماعي للبدو الرحل ونزعتهم للسطو والنهب التي لا تكتبح. هؤلاء هم من يجدر في حقهم أحيانا استعمال ما

يطلق عليه اللواء كالييني "العمل الشديد" بمعنى عمل الطوابير العسكرية ذو الأهداف المعينة. وهذه الطوابير كما كتب عنها المقيم العام لمدغشقر يجب أن توجه فقط ضد التجمعات الكثيفة والخطيرة كالتي تتجمهر عادة حول ذلك العنصر المضر جوهريا والذي هو القائد الثائر؛ يجب ترك الفراغ حول هذا وتقويض نفوذه بكل الوسائل المتاحة، السياسية منها والعسكرية، وذلك بواسطة ضربات متكررة ومستمرة حتى يختفي أو يخضع بشكل تام.

ألم يكن هذا بالضبط هو حال سليمان الباروني وأتباعه من برابرة جبل نفوسة الإباضيين؟ أيجب الإسهاب في الحديث لإبراز أن اللواء لكيو ومساعديه من كل شرائح التنظيم العسكري طبقوا بشكل سليم المبادئ المنظمة لغزو وتوطيد الأمن في البلدات المحتلة؟ إن الأفعال أكثر فصاحة من أي خطاب آخر. واليوم يمكن التأكيد بأن التقدم السريع للجنرال لكيو عبر الجبل، من غريان، التي يفصلها عن طرابلس 92 كيلومترا إلى نالوت التي تقع على بعد 318 كيلومترا من العاصمة، كان رائعا وأنه سيدون ويذكر لأمد طويل في حوليات العمليات الاستعمارية. كما يمكن القول بأن العملية لم تكن أقل أهمية من حيث أثارها لا من وجهة نظر سياسية ولا عسكرية.

تقريبا في كل مكان، خاصة في المنطقة الواقعة في أقصى شرق جبل نفوسة، استقبل السكان جيوشنا كمحررين وأرسلوا قاداتهم مسافات بعيدة لتقديم الولاء والتقدير لقائد الطابور، وهذا دليل على أن هذه الحملة تم التهيئ لها بشكل حكيم وفعال على المستوى السياسي وإلا فإن برابرة الجبل المهزومين في الأصابعة كانوا سيواجهون بشراسة تقدم قواتنا عند مضايق جبالهم، أو في حالة ما إذا اعتبروا أشواطا أخرى من المقاومة أمر مستحيلا، بسبب ذلك الارتياب الذي يكاد يكون فطريا في الشعوب الإفريقية حيال الدخول الأوربي إلى أراضيها، فإنهم كانوا سيغادرون بشكل جماعي بلدانهم للتعاطي بالنهب أو الاحتماء وراء الحدود. عكس ذلك فإن معظمهم دخلوا في علاقات سلمية مع رجالنا.

من لم يكن يحس عكس ذلك إطلاقا بأنه في مستوى مواجهة العاصفة هو قائد برابرة الجبل. سليمان الباروني الذي فكر جيدا في الاحتماء تحت وابل الضربات المتكررة والمستمرة لجنودنا. إن الخطة التي أراد الجنرال كالييني تطبيقها ضد كبار القادة الثوار قد تم تطبيقها بشكل كلي وجزئي من لدن جنودنا حيال هذا الثائر. ولنثني إذن على من دبر وعلى من نفذ هذه الخطة التي حصدت في وقت وجيز نتائج هامة ودائمة طبعا.

لم يبق أمام الباروني، صقر يفرن، حتى أمل دخول واعتناق الأسطورة كما حدث ذلك مع الرهيب غومة عندما خرجنا من الكوخ الذي نسج فيه ثائر الجبل آخر خيوط شبكة دسائسه وجبروته أخذ فرحات باي بذراعي قائلا في حلم وفطنة وهو يمسح على لحيته المدببة:

- لم تعد لكل هذا أهمية ولا قيمة. فقد ولى زمن الباروني وغربت قواه إلى الأبد... هذا إن لم يقم بارتكاب خطاء يعيده من جديد إلى الواجهة.

بعد صمت وجيز وكأنه يتحدث إلى نفسه أضاف هذا العربي العالم بكل خبايا النفس العربية

- لا تضعوا ثقتكم في الباروني أبدا ! . فهو لن يبادلكم قط الود إن تعصبه أساسه الطموح.

يبدو لي أن الريح التي تجوب الوديان وتصفع جدران القصر القديم المتآكلة تردد نفس التحذير. لا تثقوا... لا تثقوا أبدا !

الفصل الخامس

في عين الرومية العذبة

عاصفة ليلية - طرابلس الجبل - تجارة عربية وعلامة فرنسية - معمل الباروني لصناعة الأسلحة - مرشدنا إبراهيم بن علي - بساتين يفرن - عين الرومية - كيف حصلت يفرن على التجهيزات المائية ولم تحصل على الماء - خفير الماء.

يفرن - الرومية، إبريل.

هطلت أمطار طوفانية هذه الليلة على يفرن. كان لهبوب الرياح في المضايق الصخرية العميقة زفير حانق، وكانت المياه تنزل دون انقطاع، وكأنها تخرج من مرشة كبيرة، عبر سقف البيت فوق أوراق الباروني وكتب تركية ضخمة للحسابات وفوق شخوصنا المنكمشة فوق دولاب مقلوب. قد يعتقد أن كل قطرة تجد لها ثقبا وعلى كل منا ينفتح سيل بارد دون انقطاع. كان زفير و خرير العاصفة الجبلية يجد أن صدى وحزنا في القذف الجماعي الغريب لأصدقائي البؤساء.

كان أحدهم يؤكد أن عبر فتحات وثقوب السقف ترى أهداب كاملة من سماء ممطرة، في حين كان واحد آخر يصب جم غضبه ضد الأتراك الذين يسقفون البيوت بالمناخل أو ضد بعض الايطاليين الذين كانوا يؤكدون عند بداية الحرب أن السماء لا تمطر قط في طرابلس. وحده فقط صديقي الجالس بجنبي فوق الدولاب كان صامتا يتأمل السقف المريب وحتى يتمكن من تتبع الخيوط الفضية المتساقطة من الأعلى بشكل أفضل كان يغمض عينا ويضع في الأخرى كدرع واق عدسته الكبيرة.

استمر تهاطل المياه لبضع ساعات لكن عندما خرجت من البيت حوالي الساعة السابعة كانت زرقة فاقعة وصافية تلف المشهد كله من جديد. أصبح الهواء كماء رباني يسقي ويسيل فوق كل شيء. منابع الحياة مفتوحة عن آخرها فوق هذه الأرض. في السهل عند قدم الجبل كانت شبكة من أسلاك فضية تلمع: أنها مياه الليلة تسيل هناك في الأسفل في مشاتل رقيقة. بعد ذلك عرف الضوء رجة مفاجئة: ظهر قوس لهيب في الأفق البعيد، انفتح واكتسب حجما أكبر كوردة حمراء. فجأة اتسع العالم من حولي وارتدى أشعة الشمس.

على الفور من ذلك وكأن حشدا من الحشرات استيقظ من سباته أعاين من الرعن الذي أقف عليه حركة غريبة ودؤوبة في أزقة يفرن، تاگربوست وعلى جنبات الجبل. لم أكن اعتقد أن عددا هائلا من الناس يقطن فوق القمم الصخرية هذه.

أوضح لي النقيب فيتالي أن أكثر من ثلاثين ألف نفر من الأهالي يشكلون ساكنة يفرن وضواحيها. ليس من باب الصدفة أن يطلق على يفرن طرابلس الجبل، وقد وصلت إليها الحضارة أكثر من أي بلدة أخرى في الجبل رغم أن الأتراك تفادوا دائما تحسين أوضاعها ودعم تطورها الطبيعي.

كانت يفرن في ظل الحكم العثماني مقر الحاكم العام لجبل نفوسة أي مقر متصرف كان يخضع لوالي طرابلس ويتبع له بدوره قائمقامات عدة مقاطعات. لم تكن تركيا تأبه كثيرا الحكم ممثليها هؤلاء، كان لزاما عليهم أن يراعوا أمورهم بأنفسهم وأن يعملوا على وصول بعض الجبايات من حين لآخر إلى صناديق الإدارة العامة. في مثل هذا الوضع، ولأن الأتراك كانت لديهم القناعة بفقدان طرابلس في يوم أواخر، يفهم كيف أن الساكنة هنا تركت في حالة من الهجر المؤسف وكيف أن بعض التحسينات وبعض التطورات جاءت من جهة أخرى، من جهة تونس التي سبق لها أن مدت يدها تجاريا إلى الجبل حتى بلغت يفرن.

تصل قوافل كثيرة إلى هنا قادمة من تونس: بل إن آخرها وصلت إلى المنطقة غداة احتلالنا الجبل قادمة من بن گردان وكانت محملة بالسكر، الشاي، البن، الثوب وأدوات ذات استعمال منزلي. كانت هذه القافلة موجهة إلى الباروني غير أن جنودنا الذين بقوا دون زاد بسبب يوم من السير السريع استقبلوها بحفاوة وتشريف.

كانت كل المبادلات التجارية تقريبا قبل الحرب تعبر الحدود التونسية. بمهارة وفي استغفال للأتراك أنفسهم استطاع الفرنسيون في الآونة الأخيرة تحويل القوافل القادمة من الداخل إلى يفرن، فساطو ونالوت والدفع بها نحو التخوم التونسية عوض توجيهها إلى طرابلس. بعد انغلاق المنافذ الساحلية بسبب الحرب، وكما يسهل فهم ذلك، اتخذت هذه الظاهرة وثيرة أكبر.

لقد تحققت من الأمر بنفسي، كل شيء في يفرن من أصل فرنسي: فرنسية هي المعدات والأدوات وبارود وصنع الذخيرة التي تم العثور عليها في مخزن جد منظم قرب القصر، فرنسية هي معدات إصلاح الأسلحة، فرنسيين هما أيضا محركين جيدين تم وضعهما في القصر، السكر والشاي من نوع فرنسي وحتى بعض علب البسكويت التي

تحمل موطنا مزيفا هي مصنعة في مرسيليا لأنها ملفوفة بفخفخة في ورق أبيض أحمر وأخضر وقد وصلت بأعجوبة إلى هنا أياما بعد وصول قواتنا. نزلنا إلى وادي الرومية ووجدنا به آثارا فرنسية أخرى.

قررنا استئناف السير صوب جادو-فساطو بعد أن سكنت العاصفة وبعد أن فسح لنا يوم من التوقف بزيارة يفرن عن آخرها بما فيها قصرها، آخر بيت للباروني، مصنع الثائر المهرب للذخيرة، مخزن الأسلحة الذي يحتوي على أكثر من ألف بندقية من نوع موزر Mauser، مارتنيMartini ، كراتز Gatz، مانليكر Manliker، كباك Kabak، وينشستر Wionchester؛ مستشفى الهلال الأحمر والكوخ الذي قضى فيه أعضاء بعثة سان فليبو سفورسا Sanfilippo-sforza أشهرا من السجن.



نساء زنجيات في مدينة يفرن

نحن مدينون للباروني بمواصلة سفرنا هذه المرة لأنه لولا صفائح الوقود الفرنسي التي تركها في يفرن لما استطاعت شاحنتنا 340 المقدامة استئناف سيرها عبر الجبل.

أراد الملازم أول بوريلو Boriello ، قائدنا الصبور وصديقنا اللطيف، أن يحمل معه على ظهر الشاحنة مرشدا من أهل البلدة ليدلنا السبيل خلال هذه المرحلة الطويلة من سفرنا. إنه الزبيطة (عسكري من الأهالي) من حرس الإقامة العامة بيفرن. له بنية جسدية كبيرة وضخمة أصله من فزان وله ملامح قاسية وملآنة تجعله يبدو وكأنه خرج

لتوه من كتلة رخام أسود. كان يجلس فوق خزانات الوقود مكتوف الساقين مستقيما لا يتحرك في انضباط ورجولية لابد أنه ألفهما في الصلاة. إبراهيم بن علي - هذا اسمه حسب ما صرح لي به- لا يتكلم ولا يبتسم. ورغم ذلك فإنه يبدو لي أن ابتسامة خفيفة تهز شفاهه الغليظة ويتمدد بؤبؤ عينيه بشكل كبير كلما أسرعت الشاحنة في سيرها. بالطبع إنه فخور بركوب الشاحنة وقد كنت ألاحظ عندما نمر قرب جمالين يتسلقون في بطء إلى جانب دوابهم الناعسة مرتفعات يفرن أن إبراهيم يقوم أكثر وكأنه يريد أن يرى بشكل أفضل من لدن إخوانه البؤساء.

بعد نزول وصعود الأودية التي سبق وأن عبرناها للوصول إلى يفرن -الطريق الملتوية المقفرة المخيفة المعلقة شاقوليا فوق الأودية بعد تجاوز قرية أم الجرسان وللوصول إلى وادي رومية التمست الشاحنة طريقا آخر في مشهد بهيج من مرتفعات صغيرة يكسوها أشجار زيتون معمرة يبدو أنها تلتمس خلفا لها.

هذه هي بساتين يفرن. هنا يباشر جزء هام من ساكنة مقاطعة يفرن أعماله الفلاحية المحدودة جدا بينما يمارس الجزء الآخر - يتكون بالأساس من البرابرة الرحل - الرعي وتجارة القوافل.

لابد أن الأرض هنا تتميز بخصوبة عجيبة إذا ما نظرنا إلى حقول الشعير الرائعة والمناطق الصغيرة التي تنمو فيها الحبوب. فإذا كانت هذه الأراضي بمجرد تحريكها سطحيا من لدن الأهالي الجهلاء الخاملين تعطي دلالات على كثرة خصوبتها فماذا ستصير غدا إذا كشفنا بمجهوداتنا وآلياتنا الفلاحية عن الثروة التي تخفيها؟ ما الغاية من تكليف بعثات علمية بدراسة الأراضي الفلاحية بالمنطقة الساحلية والتطلع إلى مستقبل فلاحي مزدهر في المنبسطات الرملية والى عودة واحة نضرة إلى حيث لا يتواجد سوى كثيب رملي تحركه الرياح؟ لأي غاية وهنا في الجبل على بعد أقل من مائة كيلو متر من الساحل لا تنتظر مناطق شاسعة سوى اليد التي تزرعها وتجمع غلاتها؟.

ليست المياه هنا في الأعلى بالشيء النادر لأن الأمطار تتهاطل لعدة أشهر من السنة وتكون جد غزيرة أحيانا والحرارة دائما معتدلة بسبب الرياح والأرض بطبيعتها جد غنية. إذا كان هناك خصاص في المياه فإنه لن يكون من الصعب العثور عليها في هذه الأودية وذلك بحفر الآبار ووضع قنوات للينابيع المنتشرة هنا وهناك. يمكن عبر دراسة جيولوجية دقيقة وصارمة مع الأخذ بعين الاعتبار التوجيهات التي أسفرت عنها الأبحاث الهيدرولوجية الحديثة. إحداث تجديد على مستوى الغطاء النباتي للجبل المتناثر

والمتروكة لحتفها وخلق زراعات جديدة غنية. هل يمكننا أن ننسى أن هذه الأراضي كانت تشكل فيما مضى خزان حبوب لروما؟



زبيطة الباروني الآن في خدمتنا

روما ! روما التي تظهر من جديد. أولا عبر بقايا معلمة خالدة شيدت كتذكار لأحد رعاياها. والآن عبر واد فتان وعين يبدو أنها تبوح بين الخضرة بحكايات قديمة، تظهر لتدلنا على الطريق الذي تم عبوره فيما مضى على أجنحة النصر.

يا عين الرومية العذبة كم هو عزيز على شفاه المارة العطاشى دائما نطق اسمك القديم رومية، رومية.... !

همس إبراهيم بوجهه الهادئ الذي غير منه تقريبا إحساس بالفرحة والفخر مشددا على الحركة ما قبل الأخيرة.

- هنا عين رومية - إنها جيدة. إنها جيدة !

نحن بقعر واد صغير يبدو وكأنه زمرد خالص كبير وسط صخور صفراء. انفتحت أمامنا جادة أشجار وزيتون ونخل - من جديد أشجار النخل التي يداعب سعفها قمم أشجار الزيتون التي فقدت شحوبتها وكأنه ريش نعام كبيرة-

بينما نتقدم، ببطء الآن، في إعجاب وتأثر بسبب الرؤية غير المرتقبة لهذه الجنة الأرضية التي ظهرت بشكل مفاجئ في هذا البلد الموحش ارتفعت أسراب طيور لها أجنحة ملونة في حفيف يبدو وكأنه همسات متناغمة غريبة. لكن خريرا متزايدا وأكثر حيوية يصل إلى مسامعنا. أنه ينبعث من مخمل عشب وزهور: أنها العين الصغيرة، سيل رومية الذي يجري كخيط فضي رقيق في قعر الواد اليانع. تخرج المياه من بين طبقة حصوية مصقولة ثم تختفي لتظهر من جديد بعيدا من هناك صافية وعذبة وهي تجري في ظل أشجار النخيل والزيتون وبعض أشجار الخروب الجليل القاتم.

عند عقفة مفاجئة للوادي اختفى الجدول الذي تنبسط عليه هنا وهناك أغصان كروم لها أوراق كبيرة منفتحة على الشمس في عمق الأرض. لكنه عاد للظهور بعيدا من هناك ببعض مئات الأمتار تحت القرى الأربعة الصغيرة للرومية المبنية على جنبات الجبل كقلاع قرى من العصور الوسطى وقد ازدادت حمولته ليهوي من علو حوالي ثلاثين مترا نحو الأسفل.

تنزل نحو هذه العين الصافية من القرى الأربعة ومن يفرن دون توقف النساء اللائي يأتين لأخذ الماء وغسل الثياب. أنه موكب بطئ لظهور منحنية تحت ثقل جرات الفخار. لكن مجموعة غريبة استرعت انتباهي بشكل خاص: مرت برشاقة هيئة امرأة تضع شالا بدويا يكاد يخفي وجهها أمام نساء أخريات يقفن في وضع غريب فوق حافة منحدر. أنها لوحة مكتي[1] Michetti وقد دبت فيها الحياة أمام عيني: أنها ابنة جوريو Jorio وهي تمر...

بينما أنا منحن في العين لأبلل شفاهي إذا بهيئة أخرى تقف أمامي تحت شجرة من تين. أنه يهودي من نوع عجيب. جد هرم. ذو عظام بارزة ومظهر كاسر. كان يرفع يده وكأنه يتأهب للانقضاض على فريسة معلقة في الأعلى. ثم رجع إلى الخلف خوفا أو توجسا محدقا إلي بحدة وعدوانية. يبدو وكأنه طير صيد بوغث في عشه أو عنكبوتا يتوقف

1 - فنان إيطالي وولد سنة 1581 وله لوحات عديدة عن البراري ومشاهد توراتية (المترجم).

لتوه وهو يجري فوق نسيجه تجاه ذبابة سقطت أسيرة في فخه لاقتراب أحد ما.

وقفت انظر إليه في اندهاش فجاء إبراهيم ليخرجني من حيرتي موضحا لي أن ذلك اليهودي يرقب عين رومية منذ سنين. أنه كمحافظ المياه...يجلس هذا الحارس ذو العظام البارزة هناك من الفجر حتى الغروب يرقب مياه رومية العذبة الصافية وكوما من أنابيب ضخمة وطويلة نقش عليها اسم: تونس.



نساء يغسلن الملابس في عين الرومية

إنها حكاية مريرة بالنسبة لسكان يفرن. فهم يتوفرون على العين وتلك الأنابيب التي لا تجدي !

منذ سنوات وبسبب الخصاص الذي تعرفه يفرن على مستوى المياه ارتأى الأتراك أن عين الرومية البعيدة عن مركز الجبل بحوالي خمس كيلومترات فقط يمكنها أن تزوده بما يكفيه من المياه و كلفوا مقاولا من تونس لبناء أنابيب لهذه الغاية. لكن عمل هذا التونسي لم يحقق سوى نتائج هزيلة منذ البداية مما جعل الأتراك يتوجهون نحو مقاول آخر من قسنطينة. من السيئ إلى الأسوأ ! فقد بدأ هذا من حيث كان يجب أن ينتهي أي أنه شيد أولا وقبل كل شيء الخزان الذي كان سيستقبل المياه في يفرن. ثم بدأ بوضع الأنابيب على طول بعض الكيلومترات. امتدت الأعمال على مدار سنتين وعند وضع كل مائة متر من الأنابيب كان المقاول المكار يطلب المزيد من المال للاستمرار في عمله.

بعد نفاذ المبلغ الذي خصصته الحكومة لهذا الغرض تطلب الأمر من تجار يفرن أداء الباقي. رغم ذلك فإنهم انتشوا في يوم سعيد برؤية هذا العمل منجزا. طبعا كان منجزا لكن ولغياب الضغط الضروري فان المياه لم تبلغ قط خزان يفرن كما لم تبلغ السلطات التركية وتجار المدينة قط هذا المسلم المحتال الذي دفعوا له أموالا أخرى لإحضار المياه. كما وعدهم بذلك. آلة عجيبة لجلب الماء من الرومية. لا أثر لمهندس اسطنبول ولا للخمسين ألف ليرة التي تم دفعها للتمتع بالجفاف. اختفى التركي ومعه النقود !

اليوم يحرس اليهودي الهرم بنفس الغيرة الأنابيب الفرنسية المهجورة وعين الرومية العذبة والماء لا يصل إلى يفرن إلا على ظهور النساء البدويات في جرات من فخار.



الفصل السادس

من الرومية إلى فساطو الناعسة

تقييم المسافات عند العرب - وادي الخلايفة - ممرات صعبة- سهل الرياينة - الليمس تربوليتانوس- أبراج وقلع- الغزو الروماني وآثاره - دراية الرومان بأساليب الاحتلال - الزنتان الموحشة والمريبة- سكونية الإحياء والأشياء- قصة إبراهيم- ليلة في العراء.

الرومية - جادو - فساطو إبريل

إن تقييم المسافات عند العرب يخضع لنفس طفرات البارومتر. اطلبوا من بدوي هنا أن يدلكم على الوقت الضروري لبلوغ هذه البلدة أو تلك وسيجيبكم بكل ثقة ودون تردد بعشر ساعات على سبيل المثال. واصلوا سيركم لبعض الكلومترات وتوجهوا بنفس السؤال لأحد أولئك المارة الذين يغشاهم النوم ويتهيأ لك أنه محكوم عليهم بسفر أبدي فوق هذه الأرض وسيقول لك في هدوء وبنفس الثقة: ثلاث ساعات. عندها ينشرح القلب بأمل جميل. لكن إذا عاد الشك ليلدغكم بعد مرور ثلاث ساعات فلا تستغربوا إن أكد لكم مار آخر أنه للوصول إلى تلك البلدة يلزمكم سير يومين.

هذا ما حدث لنا خلال المرحلة الرابطة من سفرنا بين يفرن وجادو- فساطو. فقد قيل لنا أن - علينا قطع 45 كيلومترا للوصول. وفي الطريق كانت هذه المسافة تزداد وتنقص كلما سألنا هذا أو ذاك من السكان المحليين لمدة ثلاث ساعات تكرر على مسامعنا أننا على بعد ثلاثين دقيقة من الزنتان بالرغم من أن الشاحنة تتقدم شيئا فشيئا. وحين اقتربنا من وجهتنا بعد يوم عسير من السير سألنا صاحب قافلة فأخبرنا بكل وقاحة أنه لا يزال أمامنا يوم من السير للوصول إلى فساطو ولحسن الحظ كان خبره المحزن هذا غير معقولا.

كانت مسافة 45 كيلومترا الفاصلة بين يفرن والزنتان بلا شك الأكثر صعوبة والأكثر وعورة في سفرنا عبر الجبل بدأت الأمور تتعقد بعد أن تجاوزنا بساتين الرومية النضرة. فالطريق الوحيد الذي يجب سلكه هو الطريق الخيالي الذي يقتفي آثار خط التلغراف التركي الذي يستحق (بين قوسين) كل العرفان منا لأنه كان الشريط المضيء الذي قادنا في كل الأحوال إلى وجهتنا.

كان التلغراف حتى بستان الزيتون اليانع الذي يتقدم الزنتان يتبع بشكل طبيعي الطريق الأكثر اختصارا؛ يتسلق أكمات وعرة وينزل في أودية ذات جدران صخرية، يقطع سهولا مهجورة وحقول شعير خضراء وكان لزاما على شاحنتنا فعل نفس الشيء. واجهتنا أولى الصعوبات بما للكلمة من معنى في واد الخلايفة على بعد 20 كيلومترا من يفرن وبالضبط في مفترق طرق به أشجار زيتون وغنى بآبار بها كميات لا بأس بها من المياه يعود واحد منها حسب ما بدا لي إلى الفترة الرومانية لأنه شيد بحجارة جد مربعة وموضوعة بشكل منتظم فوق بعضها البعض.

كان لزاما علينا عند نقطة معينة من سهل الخلايفة، للسماح لشاحنتنا 340 بالمرور من طريق يختلف مستواه بشكل بارز تشييد شطر من هذا الطريق يبلغ طوله 30 مترا وذلك برفع ما يجب رفعه منه بحجارة كبيرة وحفر ما يجب خفضه بالفأس. اشتغل أعضاء السرية لأكثر من ساعتين تحت الشمس الحارقة بحماسة وانضباط وكأنهم حشد من جند الهندسة أو من المتسلقين. كان قائدنا وصديقنا الملازم بوريلو يحثنا على العمل ويخلص فيه. كان من الضروري المرور مهما كلف ذلك لأنه لم يكن هناك من سبيل آخر.

كنا ننهي الأمتار الأخيرة من الممر عند ما التحقت بنا قافلة من خمسين رجلا تقريبا. ترك هؤلاء الجمال تواصل طريقها المألوف في هدوء والتفوا حولنا في فضول وساعدونا في آخر الأمر في دفع الشاحنة الثقيلة لتجاوز النقطة الصعبة والخطيرة من الطريق. لكن عمل المعول والفأس لم ينته بعد: لعدة كيلومترات كان على شاحنتنا الوفية التقدم بحذر، والتوقف عند كل بضع مئات الأمتار للسماح لنا بتفقد أفضل الممرات أو لتمهيد الطريق بإزالة الدرجات المفاجئة التي تعوق سيرنا.

وصلنا في حوالي منتصف النهار - كان المقياس الحراري يسجل 36 درجة- إلى سهل شاسع ألا وهو سهل الرياينة الذي تنتشر فيه حقول صغيرة تم حرثها حديثا وتبقعه حقول شعير يانع.

تعتبر الرياينة واحدة من أخصب مناطق الجبل. لابد طبعا لساكنة لها ميولات فلاحية بارزة أن تعيش في هذه الأرض ومنها لكن ورغم إنني أمعن النظر لم استطع لكيلومترات وكيلومترات رؤية ظل مخلوق حي.

لم يكن هذا الغياب الغريب للأهالي إلا ليزيد من توهمي إني أعبر إحدى المناطق

الخضراء الكثيرة المعروفة في وسط ايطاليا وبينما أنا كذلك فإذا بمعلمة رومانية أخرى تزيد وهمي قوة...

اكتشفنا هذه المعلمة على الجانب الأيسر من طريق القوافل وخط التلغراف حيث تتلاحق عدة أكمات صغيرة يغطيها خباز وأزهار أقحوان تبدوا كأصداف من ذهب، وخشخاش أحمر وأزهار النبتلي العطرة؛ وهي تبدوا، أي الأكمات، كأنها أمواج خضراء لبحر شديد الخضرة. يتموقع الإحتلال الروماني هنا أيضا بالضبط مع الجزء الأكثر خصوبة من البلد. لم يبق حاليا على المرتفع الزمردي سوى الآثار السطحية لما كان حسب اعتقادي قلعة رومانية. يبدو شكل البناية واضحا وهو عبارة عن مضلع رباعي من 50 مترا تقريبا.



آثار رومانية في جادو

فوق مرتفع قريب من هذه البقايا، على بعد 200 متر تقريبا في الأعلى، تلاحظ بقايا بناية أصغر ربما كانت مركز حراسة متقدم أو برجا للمراقبة.

هنا أيضا خلفت الهندسة الاستعمارية لروما آثارا خالدة. من هنا إذن كان يمر الليمس تريبوليتانوس المشهور، الطريق العسكري التجاري الكبير الذي ينطلق من نالوت مارا بيفرن ومن هناك عبر واد لبدة في لبدة والذي شيد القادة الرومان على طوله قلاعا ومراكز للحراسة لجعل الطريق الرابط بين تونس وسرت أمنا ولإحكام سيطرتهم على الأهالي وحمايتهم من الغارات المتكررة (القادمة) من الجنوب.

يزودنا الدليل اللاتيني الذي تركه انطوان Antinino وألواح بوتنغر Peutinger بأسماء كل المراحل و البنايات العسكرية الفلاحية التي شيدها الرومان في الجبل في إشارة إلى طريق تاكابي Tacapè المعروف (من قابس إلى لبدة الكبيرة). كما هو معلوم تم التعرف على مراحل هذا الليمس ذو الأهمية الإستراتيجية والتجارية بشكل كلي تقريبا في تونس في حين تم الاكتفاء في المقطع الطرابلسي منه بالفرضيات بما أن الأتراك لم تكن لديهم قط الرغبة في فتح أبواب الأجزاء الداخلية من البلاد في وجه المستكشفين الأوربيين. بطبيعة الحال اتضح أن هذه الفرضيات التي تمت بلورتها مؤخرا خاطئة أو غير صحيحة في مجملها بسبب عدم معرفة البنية الجغرافية للبلاد.

كان بعض علماء الآثار يشيرون إلى أن الليمس يمر من غدامس لكن خط الرحلة هذا يتجاوز بشكل واضح المسافات التي تشير إليها النصوص اللاتينية، أكثر من هذا كيف كان يمكن للخط الروماني أن يمر بغدامس إذا كان اسم سيداموس Cydamus، أي البلدة الأكثر أهمية بالمناطق الداخلية لطرابلس، غير وارد في مرجع انطوان Antinino؟ اعتقد البعض الآخر من العلماء أنه يمكن للخط أن يمر بالجفارة لكن لا أدري على أي أساس بما أنه لا توجد أي معلمة رومانية بهذا السهل تشهد على ذلك. فضلا عن هذا، أي فائدة كان سيجني المعمرون الرومان الأذكياء والمتمرسين في وضع طريق كبير في الصحراء ! جمع دوفيري Duveyrier دلائل محلية انطلق منها تيسوت Tissot لوضع الطريق القديم في المنطقة الوسطى للجبل. لكن لو أن تيسوت قطع هذه المناطق مرة واحدة وعاين هذه المتاهة من الأودية العميقة والقمم المقفرة لكان بلا شك سيغير كثيرا من رأيه. إن الأطلال التي يذكرها ليست سوى آثار بربرية يعتقد سكان الجبل أنها رومانية وهذا كل ما في الأمر.

إن من استطاع أن يعرف بشكل موثوق به الليمس تربوليتانوس في السنوات الأخيرة هو ماثيوزيو هذا السائح الفرنسي الذي حالفه الحظ في عبور جزء كبير من طرابلس وتولد لديه اليقين مرورا من بلدة إلى أخرى بأن الليمس كان يعبر الجبل خلف المنطقة الأكثر تقطعا. وقد أثار انتباهه عند مروره من الزنتان التشابه الموجود بين تنتيوس Thenteo أو زنتيوس Zenteos والزنتان Zintan وكما هو معروف فان زوج الأحرف -Th- الليبي ينطق كنظيره الإنجليزي. إذا كانت فرضيته صحيحة فلا شك أن هناك بقايا رومانية بالقرب من هنا، في سهول المرتفع القريبة جدا. وقد عثر على هذه البقايا فعلا وتتمثل في قصور وقبور وقرى شيدت كلها بحجارة مربعة. انطلاقا من هنا استطاع التعرف على بلدات أخرى من تلك التي يذكرها انطوان في رحلته: كان هناك تطابق دائما

ليس فقط في المسافات ولكن أيضا بين الأسماء الحالية والأسماء اللاتينية. لم يعد هناك إذا أي مجال للشك: من نالوت إلى يفرن يمتد خط البروج والقلاع على قمة الجبل؛ من يفرن ينزل نحو الجنوب شرقا لتفادي الشعب الجانبية الوعرة لغريان وترهونة ثم يتبع واد تمسينان لينتهي في لبدة الكبيرة.

يحدثنا هذا الليمس الذي يعبر المدرجات الخضراء التي أطلق عليها هردوت "اكمات النعم" عن أهمية الهيمنة الرومانية في طرابلس. هناك كان يسكن المعمرون وموظفوا روما الذين تحولوا إلى مدرسين وولوا مهام نشر اللغة والمعرفة الفلاحية والفن المعماري الروماني. كانت المحطات الرومانية الموزعة بشكل محكم فوق هذا المرتفع، كما تبين البقايا ذلك: تسمح للمسافرين بالارتياح كل ليلة في مكان آمن من قابس حتى الخمس. كان يشرف على حراسة هذه الحصون والقلاع حاميات عسكرية رومانية حقيقية لا مثيل لها. لم تكن الفيالق الرومانية تزود هذه الحاميات بالرجال. فروما البخيلة بدمائها وثرواتها كانت تفوض عادة حراسة حدودها البعيدة لعساكرة من الأهالي يؤطرهم قادات المائة (عند الرومان) وقادات العشرة (عند الرومان) تقريبا كجيوشنا السوداء في إريتريا والاسبايي[1] Spahis في تونس والجزائر الذين يؤطرهم ضباط وصف ضباط أوروبيين. كل هؤلاء الأعوان، سواء كانوا فرسان الالوكا أو مشاة الكوروتس، كانوا يخدمون بوفاء كبير تحت إمرة الضباط الفرسان. كانت هذه الوحدات المحلية تؤدي خدمات جليلة لأن الرومان كانوا يسهرون على توجيهها إلى أماكن تلائمها أكثر ويتركونها بها بشكل دائم. بتعودها على المناخ المحلي وتآلفها مع الساكنة المحلية ومع أساليب العدو الذي كان يتشكل كما اليوم من القبائل الرحل وقطاع الطرق فان هذه المليشيات كانت تقوم بمهامها دون ارتكاب أخطاء فادحة كالتي تقع فيها باستمرار- حاميات مستعمراتنا.

إذا ألقينا نظرة عامة على كل بقايا الحضارة الرومانية هذه في الجبل لا يمكننا سوى الاعتراف بأن ازدهارا كبيرا وحقيقيا عم هذه الأراضي المرتفعة خلال القرون الخمسة الأولى من عصرنا.

يظهر من تقييم، تقريبي بالطبع، أن الزراعات القديمة لم تكن تغطي في مجملها سوى ربع المساحة الكلية للمنطقة لكن النوعية كانت تعوض الكمية بما أن المؤسسات الفلاحية كانت، حسب قول المؤرخين، غنية بشكل خارق للعادة. لقد عرف الرومان كيف يجعلوا من طرابلس التي وجدوها قاحلة بلدا جميلا. كان التطور تحت إدارتهم مستمرا

1 - وحدة عسكرية فرنسية كانت تنسق الجنود من الأهالي في تونس والجزائر (المترجم)ؤ

فأينما حطوا رحالهم كان المعمرون يعرفون سبيلهم إلى الماء في أعماق الجبال ويعملون على تخصيب التربة. كانوا خبراء في أساليب الاستعمار. كانت روما جد بعيدة ولازالت كذلك اليوم أيضا. وهذه حقيقة أدركها مجلس الشيوخ آنذاك وترك حكم المستعمرة بشكل كلي في أيدي ممثليه. وأدرك هؤلاء الرجال المتمرسين أنه يستحيل عليهم احتلال بلد شاسع كهذا دون مساعدة من السكان الأصليين فعملوا على كسب ودهم بدهاء و حكمة: لم يفرضوا عليهم مؤسسات العاصمة الرومانية ولم يلغوا أشكال المجالس البلدية التي كانت قائمة عندهم واقتصر تحديثهم على إعطاء قبائل البدو حق المواطنة والامتيازات التي تترتب عنها.

هكذا استوعبت واحتضنت ديانتهم معتقدات السكان الأصليين: اختلط الآلهة بكاكس Bacax . بالديز Baldiz إلى آخره بدين السكان الجدد وتم تبني آلهة افريقية أخرى حتى في روما حيث أصبحت الآلهة كويلستس Dea Coelestis تانيت Tanit وبان هامون Baan Hammoun صار ساتورن الأكبر Saturno.... وهكذا امتد نفوذ روما بعيدا حتى وصل إلى غدامس بل أبعد من ذلك وصل حتى إلى فزان.

حقا إن الرومان أمضوا قرونا لتحقيق ذلك الازدهار الذي يجب أن ننشده نحن اليوم. ولتكن آثار ماضينا المجيد هذه تذكيرا وتحذيرا وحافزا لنا حتى تعود الأيام السعيدة إلى هذه الأراضي الجبلية التي أصبحت تابعة لروما من جديد وبشكل دائم.

سترافقنا آثار روما حتى أقصى نقطة في الجبل. لنترك كتل القلعة الرومانية الصامدة وتاريخها الخالد ونستأنف طريقنا الذي لا يزال طويلا.

واصلنا سيرنا دون مصادفة أي مخلوق حي وسط أراضي رائعة وحقول من شعير وبساتين تين أقزم يبدو أنها تنتظر بشغف منذ سنين طويلة معمرين مجدين وأذكياء. علمت من إبراهيم، (الزابيطة الفزاني) الذي وقع عليه الاختيار كمرشد لنا في يفرن، أن هذا السهل الجميل يزرعه سكان قرى أهلة تركناها على يميننا بعيدا في الشمال بين الأودية وكان يقصد بذلك أولاد علي، أولاد عبد العين وأولاد عبد العزيز وكلها قرى يسكنها عرب مسالمون لا يهتمون سوى بالزراعة والرعي.

بعد عبورنا أيضا لبستان الزيتون النطر الذي تريد الأسطورة أن يكون سليمان هو غارسه وصلنا إلى الزنتان.

الزنتان بلدة غريبة يسكنها خمسة أو ستة آلاف نسمة تقع على بعد 45 كيلومترا

من يفرن. تبدو وكأنها قلعة نحتت في صخر قاحل وجففتها أشعة الشمس. هناك اختلاف صارخ بين هذه البلدة الموحشة وطبيعة الرياينة الخصبة جدا. مع ذلك فالزنتان لا تشكو من ندرة المياه. على عكس من ذلك أكد لي أحدهم أنه في الوادي الواقع في الجزء الشمالي الغربي توجد عدة خزانات مائية وأن عينا جيدة تنبجس في وادي حسباك على بعد ساعة من السير.

تشكل ثلاثة أو أربع تجمعات سكنية شبه بدائية، أي خليط من مساكن تحت أرضية (كهفية) وحوالي 500 كوخ من دور أرضي. تشكل البلدة التي، وكما قلت، يميزها طابع موحش وبدائي. بالنظر إليها من الأعلى، ولأن المساكن منكمشة على نفسها في شكل قدح رمادي، تبدو وكأنها مقبرة أثرية قديمة تم الكشف عنها. بالفعل تنبعث من كل فج في القرية ريح غريبة مفعمة بالسكينة والموت وقد نفترض أن شعبا برمته لقي حتفه هنا بقدر وقضاء.

بتوفر السنوسيون هنا في حي الگواسن على زاوية ذات أهمية ويملكون قطيعا كبيرا من الجمال الخاصة للتوالد. بما أن البلدة تحيط بها أنضر حقول الزيتون في الجبل فإنها تعج بمعاصر الزيتون التي تديرها جمال تغطى أعينها على الطريقة التقليدية.

روى لي فيما بعد أن ساكنة الزنتان تعتبر واحدة من تلك التي لا تؤتمن في الجبل وأنه كثيرا ما دخلت في صراع طاحن مع قبائل البلدات القريبة منها وبأنه سنوات مضت اغتيل بها رائد تركي كان على رأس حامية عسكرية صغيرة وأن الباروني كان يعول بشكل خاص على أناسها خلال حكمه الوهمي الوجيز. هذا ما يقال. لكن الزنتانيين في الحقيقة استقبلوا بخضوع لا ريب فيه الجنود الايطاليين. وأنا، في الزنتان كما في أماكن أخرى، تأكدت من المغالاة والإصرار الساذج في الاعتقاد على أن الرومي سيواجه عدوانية شرسة لا تقاوم إذا ما قام بأية محاولة للتوغل في طرابلس وهذا أمر يبقى في عاتق من كانت له بواعث خاصة ليكون الأمر كذلك.

لنقنع أنفسنا اليوم بأن العربي الطرابلسي له عيوب شتى، عيوب ميزة لجنسه، لكن تم ثلبه أكثر مما يستحق وذلك بالنسب إليه نوعا من التطرف الديني المتحجر وحتى إن كان هذا التطرف موجودا فإنه يظل نسبيا. وماذا لم يقل عن البربري حتى الأمس القريب؟ لقد جعلنا منه مخلوقا فوضويا وشرسا قد يواجه ويدفع من أعلى قصوره في الجبل أي هيمنة مسيحية ولو تطلب ذلك قرونا حبا منه لاستقلاليته واعتزازا بعرقه.

ترحل الآلهة وحتى الأساطير تتجرد من مغزاها كما تتجرد الوردة من أوراقها. إن ذلك الحاجز الذي اعترض لأمد طويل وبشراسة التوسع الفرنسي في أفريقيا، أي الإسلام، لم يعد مصدر إزعاج لنا أكثر من اللازم. لقد سبرنا أغواره في الجبل وسوف تتأكد أكثر من هذه الحقيقة بتوغلنا في داخل البلاد بشكل أكبر. إن الدين المحمدي الذي حاول كعقيدة ووسيلة للعمل السياسي حتى الأمس سد الطريق أمام أي غزو مسيحي مستغلا في كثير من الأحوال كبديل للمواجهة المفتوحة لقوى النصر المسيحية معارضة صماء، حرب تأثير ودعوة مع الأمل الذي يطبعه الإيمان بأن الرسول سوف يجلي يوما عن الأرض المقدسة الكافر الملعون؛ قد غير هذا المذهب من هيئته، على الأقل في طرابلس. بل أجرؤ على القول بأن زمنه قد مضى مثله مثل غالب الأشياء في هذا العالم. لنترك الأمور تتخذ مجراها الطبيعي ولنعد إلى طريقنا.

كان الطريق لبعض الكيلومترات بعد الزنتان شاقا و مليئا بالحجارة وتخترقه أودية عميقة، وبعد ذلك دخلنا في سهب لا ينتهي ولم يكن هناك من شيء يكسر رتابة منظره سوى بعض أشجار الخروب المعمرة أو بعض الواحات الصغيرة من أشجار زيتون تنفش الرياح أوراقها.

لم نصادف لعدة كيلومترات أي مخلوق حي وبينما نحن كذلك التحقنا ببعض القوافل وتركناها خلفنا.

إن أمر رجال القوافل عجيب، خطاهم بطيئة، هادئة وتقريبا آلية. يسير كل منهم بجانب جمله ولا يلتفت ولا ينظر إلا أمامه وكأن العالم المحيط به غير موجود بالنسبة إليه أو أنه يوجد منه فقط ذلك الدرب الضيق المحدد منذ قرون والذي تتبعه دابته الناعسة المتمايلة. يبدو قائد القافلة المهيب الجاثم على ظهر أحد جمال المؤخرة بوجهه المربع باللحية التقليدية السوداء وكأنه أسقف خرج في رعاية أسقفية.

بعيدا من هناك، وبما أن الليل بدأ يلقي بظلاله، حطت قوافل أخرى رحالها في السهل. يبدو أولئك الجمالون في سكونهم وجلوسهم أرضا وأيديهم قابضة على ركبهم ملفوفين في برانيسهم وكأنهم تماثيل قديمة. لا شيء ينم عن الحياة في وجوههم الشاحبة سوى أعينهم. تكاد أطيافهم تختلط بسطح الأرض في ظلمة المساء. ينظرون إلينا على ظهر الشاحنة النفاثة التي يصادفونها بالتأكيد لأول مرة على طريقهم دون استغراب مفرط ودون اهتمام كبير في لا-انفعالية قدماء الحكماء. قد يهيأ للمرء أن كل واحدة من تلك المخلوقات تود أن تتجاهل كل شيء حتى وجود مخلوق آخر بالقرب منها. عندما ألتفت

إلى أولئك الذين تجاوزناهم لاحظت نفس الانفعالية، نفس السكون الجماعي الشرس.

لتفادي التفكير في طول المرحلة حاولت تجاذب أطراف الحديث مع إبراهيم مستعينا بالحركات حيث تخونني الكلمات العربية.

كما سبق لي القول فإن إبراهيم رجل قوي ولطيف من فزان. لابد أنه لازال في ريعان شبابه وتفاديا للحرج سوف لن أحاول تحديد عمره. فكل شيء في هؤلاء العرب يلفه الغموض والسرية. فضلا عن ذلك فهو نفسه يجهل عدد السنين التي عمرها.

هكذا حدد لي نفر متواضع من أتباع الإسلام ببساطة ودون معرفة بذلك الفرق الأساسي بين العالم الإسلامي وعالمنا.

في يوم كان الناس فيه يموتون جوعا في بلده فزان ترك إبراهيم زوجته وأبناءه واتجه نحو الشاطئ، جنده الأتراك في يفرن كزابيطة ثم اضطرته الظروف إلى الدخول في خدمة البارونى وها هو اليوم يعمل أجيرا لنا. لا يتأسف لرحيل الأتراك ولا يتألم لهزيمة وفرار ثائر الجبل ويخدمنا اليوم بوفاء وطوع لأننا نعامله معاملة إنسانية سوى على مستوى المادي والمعنوي: نؤدي له أجرا أفضل بكثير مما كان يؤديه له ساداته القدماء وهذا حالنا مع كل مأجورينا تقريبا.

أثناء هذا كانت الكيلومترات والساعات تمر في بطء وسط هذا المشهد الممل. أسدل الليل كحلته على الأرض واحتجب الأفق ولم يبق من الأحياء حولنا سوى السماء التي يعمرها عدد غريب من عوالم أخرى. استمرت الشاحنة في سيرها بقيادة ضوء عجيب، وسحري تحت هذه القبة السوداء وهو ينبعث من أكثر النجوم زرقة وتوهجا، من نجم سيريو الملكي المرتج كحدقة إلهية في الأفق الذي توسده كحلة ظلام الليل الدامس.

لم يعد أي منا يتكلم، فقط نبض الشاحنة المنتظم وحده يجرأ على خرق سكوت هذه الليلة الإفريقية الكوكبية. ربما تكون هذه أول مرة نحس فيها أيضا أننا كعابري الحلم الأسطوريين.

عاد بنا إلى ارض الواقع صياح ذو نبرة ميلانية (نسبة إلى ميلانو) صادر عن السائق الضخم الذي أوقف الشاحنة في منحدر وعر ومظلم:

- يستحيل السير أكثر من هذا في هذا الظلام. يبدو الطريق كسرير حجري لنهر جبلي...

دخلنا في اجتماع حربي مصغر تمخض عنه استحالة استئناف السير في طريق كهذا ليلا. لا نعرف أين توجد جادو-فساطو وعلى أية مسافة تقع. ليس أمامنا من خيار سوى التوقف على الطريقة والاستلقاء أرضا والاستسلام للنوم في العراء.

بعد الاتفاق على تولي حراسة قافلتنا بالتناوب استلقينا أرضا منهوكين وتركنا بريق النجوم يطرق جفوننا.

تغلب العياء على صلابة سريرنا الحجري وعلى العطش وعلى الجوع وحتى على البرد القارس...



الفصل السابع

جادو-فساطو مدينة النوم

كازا فساطو - أطلال وخمول- المقابر الإسلامية - الأذان - عين تسنوگدت - فيكني الملقب بدو اللحية النحاسية.

جادو - فساطو، إبريل

لست أدري كم استغرقنا في النوم. فقد كان الفجر يبزغ عندما استيقظت على ضجيج مفاجئ. بالقرب مني كان لا يزال الرفيق الذي تطوع بالأمس للقيام بالساعتين الأوليتين من الحراسة نائما نوم البراءة وهو يمسك ببندقيته بين يديه وركبتيه. هكذا ولهذه الليلة كانت النجوم وحدها حارسة لنا. كان الضجيج الذي سمعته صادرا عن نصف فرقة عسكرية قادمة من فساطو. قال لنا الضابط المرافق لها : يجب قطع آخر طلعة على الأقدام للوصول إلى البلدة. وهكذا حملنا متاعنا المتواضع على أكتافنا واتجهنا إلى فساطو.

تعتبر جادو مركزا لمنطقة فساطو ولها أربع مديريات تابعة. تقع البلدة على علو 700م فوق سطح البحر وتنقسم إلى شعبتين كبيرتين ويبلغ عدد سكانها حوالي 15 ألف نسمة تتعاطى بالأساس للرعي وجمع الزيتون لأن المنطقة في معظمها فقيرة وكثيرة الحجارة ولا توجد بها مصادر أخرى. على الأقل إلى يومنا هذا، لأنه لم يتم بعد استغلال المناجم فيها ويبدو أنها جد هامة هنا.

رغم تعدد عناصرها الفنية فإن فساطو ليست بالطبع بلدة جميلة. تلتف كعقد أطلال في منتصف الجبل تحت القصر الذي يتوفر على نفس الهندسة المعمارية الصلبة لباقي قصور الجبل، على نفس الجدران الخشنة المنخفضة وعلى نفس الغرف الصغيرة القذرة في الداخل. تبدو البيوت بالنظر إليها من هذا القصر العفن كأنها ركام من الحجر والتراب. لا تستجيب حقا لأي من متطلبات الحياة. تتوفر على أبواب منحرفة، نوافذها لا شكل لها، أسقفها توشك على السقوط إن لم تكن قد انهارت. تنتصب هنا وهناك بروج فظة متواضعة وهي عبارة عن مراصد قديمة.

أما هي فهي مدينة للنوم. النعاس والخمول هنا في كل مكان. يبدو أن شعبا يخبو هنا في فقره، في أنيميا لا شفاء لها وفي خرافات الماضي. الأزقة عبارة عن منعرجات متاهة هادئة تعبرها ببطء أشكال أدمية غير محددة. هنا وهناك تمر امرأة ملفوفة ومحجوبة في كتان أبيض أكثر مما تكون عليه الجثة في كفنها. أو رجل دو خطى ثقيلة لا وجهة له هذا كله في هدوء وشدة.



قرية من قرى جادو

إني أتساءل: هل لهذه الأقلية المتبقية من سلالة مجيدة يبدو أن سبات القرون ألم بها وأعي ذاتها؟ أو أنها موجودة فقط كمخلوقات منحطة تخلد إلى الراحة؟ يسهل بالطبع من خلال ملامحها الموحدة وانطوائها على نفسها استنتاج غياب أي مجهود فكري لديها أكثر من وجود فوضى أفكار وأحلام في قرارة نفسها. تتوفر معظمها على انفعالية الراحة التي تكاد تتاخم النوم بالفطرة. لكن يبدو لي أن الجانب السري والغامض لهؤلاء الأشخاص الذين يقضون ساعات وساعات جالسين كأبي الهول وعزة نفسهم التي لا تركن قط لابتسامة حقيقية يعبران عوض ذلك عن شيء ما. أحس بقوة وتأثير أفكار بسيطة ومحددة في هؤلاء الناس. تلك الأفكار التي تشكل جوهر وأسلوب حضارة ما. أفكار من أصل ديني. أفكار تشير إلى ما يليق والى ما لا يليق... لقد تطبع هؤلاء الناس بالمساجد. فالسكون العنيد لهذا الشعب هو بالضبط سكون الأماكن التي يصلون فيها.

قيل لي أنه لازالت توجد في مقاطعة فساطو النماذج الأكثر أصالة للإنسان البربري القديم في طرابلس: وقد وجدت بها فعلا أشخاصا لهم قامات تتجاوز المتوسط العام. لهم أجساد متناسقة وقوية العضلات رغم أنها أقل رشاقة من العرب. أشخاص لهم بشرة سمراء. شعر كثيف أسود وأجعد. أعين قاتمة. أنف مستقيم. وجه بيضوي الشكل وجبهة واسعة. لقد التجأوا إلى هذا الجبال عندما طردهم العرب الغزاة من الساحل وبها أصبحوا يشكلون كإخوانهم في القبائل بالجزائر قبائل جبلية محضة. لقد قاوم سكان الجبل هؤلاء ببسالة الغزاة لسبعة قرون وعندما توقفت الحروب في السهل قاوموا الغزو السلمي ولم يقرب ولو زواج بينهم وبين العرب لأمد طويل. لكن الإسلام استطاع شيئا فشيئا وإن بصعوبة تسلق هذه القمم الصخرية فاتحا بذلك المجال أمام قبول تراكمات تقاليد بدائية. بعدما كان البرابرة وثنيين ثم مسيحيين أصبحوا مسلمين على طريقتهم. وهم جد أوفياء لطائفتهم ومناهضون للإسلام الرسمي. لازال الغموض يلف قصة تحولهم الديني هذا. لم يعرف لنا المؤرخون العرب مراحله وحتى كتابات هؤلاء الجبليين نفسهم باللغة العربية وإن بأحرف أمازيغية تشبه أحرف لغة الطوارق. فهي محفوظة بغيره في المساجد من لدن القضاة.

تكلل هذه المساجد وهي عبارة عن بنايات بئيسة خشنة تم هجر العديد منها اليوم في حالة خراب مؤسف. لازال علم التاريخ والفلسفة تقليدا يدرس بهذه المساجد لذلك ينظر البرابرة إلى هذا الإقليم وكأنه مكان مقدس.

كان يلزمني للوصول إلى القصر أن اقطع مقابر صغيرة متتالية وأن أعبر دروبا جرداء تشبه أودية صغيرة وممرات ضيقة تعرف الحياة والموت لأنه يمر منها الأحياء منذ سنين وسنين ليقودوا الأموات إلى مثواهم الأخير.

ربما لأن فساطو تبدو كلها كمقبرة شاسعة أو لأن مهجتي حزينة في هذا الصباح المضيء وهذا السكون الكبير فإنه انتابني إحساس لم يسبق لأية مقبرة أن أثرت في نفسي. لم تعد هذه المقابر الصغيرة لفساطو تشكل سوى مقبرة أثرية ممتدة طولا. قد يهيأ للمرء من بعيد أنها مدن أوربية منغرزة حتى النصف في الأرض. تبدو قبور الكلس وسط الأخضر اليانع متساوية وعلى شكل أسقف أو مماثلة أيضا لأغطية مدافن غوطية موجهة كلها نحو القبلة. لا يحيط أي سور بهذه المقابر ولا اثر فيها لأية منقوشات. تضم فقط قبورا غريبة مجهولة تأوي أموات اليوم والأمس وربما أموات مائة سنة مضت دون تمييز في مستوياتهم وأعمارهم وجنسهم.

ظهر لي الموت هنا أكثر من أي مكان آخر كعامل تسوية كبيرة لغرور الأحياء لا يهتم لقبور الذين أصبحوا في خبر كان: فقط القبور الحديثة تزينها بعض غصون الزيتون، وفقط فوق قبور بعض الأولياء كدست شمعدانات فخار خضراء وحجارة ولا شيء أكثر من ذلك.

ومع ذلك كم هي تعيسة مقابرنا بالمقارنة مع هذه التي يسودها في سناء ضوء وسكون توحي بمشهد سحري شكسبيري !

ينبعث من بعض أزقة المدينة حزن أكبر بكثير من ذلك الذي ينبعث من هذه الأرض التي تنتشر فيها القبور. إن بيوت الأموات هي الأكثر حيوية في أواسط هذه الساكنة التي يبدو أنها تنطفئ ببطء في سبات وجمود. يبدو لي الصوت الذي سمعته وأنا أمر بالقرب من مسجد صغير أبيض كأنه قادم تقريبا من عالم الأموات. إن صوت هادئ جعله قرب المسيحيين اليوم أقل قوة وتقريبا خجولا. وتعلوه نبرة نواح وصلاة.

ثلاث مرات في اليوم، في نفس التوقيت: حين تبزغ الشمس في الأفق البعيد وحين تصعد في السماء وفي الأخير حين يمتقع النهار بسرعة وتحل السكينة على كل شيء، حين تغطي شارة ذهبية السماء من الشرق إلى الغرب وتصبح شيئا فشيئا قرمزية، عندها يقوم المؤذن من فوق تلك الصومعة البيضاء التي تشبه لعبة خشنة من ورق مقوى بدعوة الناس إلى الصلاة. في دعوته هذه ترنيمة طمأنينة وسلام. ينشد ذلك الرجل وكأنه في حلم عجيب: ويبدو لي أن ليس لصوته أي شيء أدمي. يبدو غريبا حتى لصاحبه وكأنه يأتي من بعيد ليمضي إلى حال سبيله. تخرج هذه الدعوة ببطء ودون حماسة من أعماق ماضي الأجداد، عبرها يحدث الأموات الأحياء ليأتوهم بالطمأنينة. بل أنهم يكادون ينيمونهم... تتكرر الدعوة أربع مرات. يدفع المؤذن برأسه إلى الخلف ويضع يده قرب فمه حتى تصل صيحته المتسقة الحزينة بعيدا في أنشودة تؤكد مرة أخرى على شعار الإسلام الخالد: الله أكبر !

تبدو المدينة النائمة المتآكلة المخربة التي لازال ماضيها الإسلامي قائما وكأنه في منأى عن متغيرات العالم البشري وكأنها تردد كلمات الله أكبر!

لكن إذا ما صمت الأذان لدعوة المؤذن الخالدة وإذا ما تجاوزت أعين الناظر المقابر الصغيرة دون أن تسيطر عليه الأحاسيس الغريبة المنبعثة من مدينة النوم، إذا ما تجاوز فساطو وتوقف عند السهل الجبلي لشارب سنوادا، آنذاك ستتجلى أمامه رؤية أخرى، ففي أسفل

الوادي تظهر بلدات صغيرة عديدة وسط حقول غريبة من نخل وتين وزيتون بالخصوص جنّاون التي تعتبر بعين تسنوگدت القريبة منها ركنا صغيرا من جنة عدن.

رافقتني إليها هذا الصباح أمة في مقتبل العمر نشيطة وكثيرة الكلام قالت لي : - إن أعطيتني النقود -الفلوس- سآخذك لترى الماء : فتعاقدت معها على ذلك فورا.

لم يكن بالأمر الهين علي اقتفاء أثارها في الممرات الوعرة المنحدرة التي تقود إلى العين. كانت مبروكة، هذا اسمها، تجري بساقيها الرشيقتين النحيفتين البرونزيتين بين الحجارة والشوك كأنها أنثى وعل صغيرة وتستقر جرة كبيرة على رأسها في توازن لا تفسير له. ومن حين لآخر كانت تلتفت إلى الخلف لتلقي لي بكلمات غير مفهومة.



نساء وأطفال من جادو

هكذا، وفي تدحرج نحو الأسفل، وصلنا إلى تجويف صخري تنبعث منه عين صافية وعذبة تنزل بعد ذلك في شلالات صغيرة نحو السهل في ظل أشجار تين ضخمة وبعض النخلات.

من هذه العين المعيونة تأخذ كل ساكنة البلدات المجاورة الماء. حدثني عنها فكيني وكأنها ثروة. وحقيقية الأمر أنها الثروة الوحيدة التي تتوفر عليها فساطو.

من هو فكيني؟ محمد بأي فكيني قائد عربي، وهو أكبر سلطة في فساطو وهو حقا شخصية مثيرة تكاد تكون تاريخية. يبدو وجهه وكأنه تهكم من الطبيعة غير أن

فكيني أكثر تهكما من الطبيعة نفسها فأرادا أن يزيدا من حدة هذا التهكم ليجعل خيشومه الصقري المبرنس الأعمى من عين واحدة أكثر غرابة وذلك بصبغ شواربه ولحيته الطويلة بلون برتقالي رائع لا مجال لوصفه هنا.

أنه يشغل منذ سنوات منصب قائمقام جادو-فساطو؛ وكان أخوه أحمد باي نائبا في البرلمان التركي. انه رجل ذو نفوذ، نشيط ومتسلط له لقب يناسبه ألا وهو "ذو اللحية النحاسية" ويتوفر على صفحة جميلة في تاريخ أحداث الجبل الأخيرة.

كما هو معلوم كانت السلطات في طرابلس العاصمة قد بدأت في شهر نوفمبر من السنة الماضية مفاوضات مع أكبر قادة الجبل وهي المفاوضات التي رحل على آثرها العديد من الأعيان إلى طرابلس ليقدموا الولاء لايطاليا.

لم يقدم محمد باي فكيني أنداك إلى العاصمة لكنه أعلم السلطات الايطالية بأن عليه البقاء في مكانه بفساطو وبأن قوات هذه الأخيرة سوف تلقى ترحيبا في مدينته.

لقد تحدثت في فصل آخر عن المنحى الذي أخذته الأحداث عندما رأى الباروني، مستبد يفرن، قواته تتضاءل إذ أمر بإلقاء القبض على القادة العائدين من طرابلس وحبسهم وذلك في ديسمبر الماضي ولأنه كان يرى في فكيني خطرا أكبر فإنه أمره بالقدوم إلى يفرن.

أجابه سيد فساطو: "إن كنت تريدني فاخرج في طلبي" ودون تأخير تهيأ لاستقباله بحفاوة خاصة: تسلح ونظم دفاعاته.

بعد ذلك بقليل استدعى الباروني قادة الجبل وجدد الدعوة لفكيني للالتحاق بهم.

أجابه قائمقام فساطو المقدام مرة أخرى: "اخرج في طلبي بالقوة، أني انتظرك".

عندها ولتفادي نشوب صراع دموي بين الرجلين قام محمد بن عبد الله، أحد كبار قادة قبيلة أولاد بوسيف المعروفة بنزعتها الحربية، بزيارة لفساطو وقال لفكيني: "إذهب إلى يفرن وأنا أتكفل بسلامتك". فانتقل فكيني إلى يفرن لكن الباروني الخائن أمر بإلقاء القبض على القائمقام ذو اللحية الحمراء وأرسل جنده في طلبه.

علم فيكيني بالأمر فدخل بيتا وتحصن به هو وقلة من أتباعه فتدخل بن عبد الله الذي عاتب الباروني على خيانته. احتج الباروني قائلا: أنه يجب حبسه ولتنفيذ هذا أرسلت في طلب محلتي الوفية بالزنتان.

أجابه قائد أولاد بوسيف: "حاول ذلك وأنا سأرسل في طلب قومي ولنرى كيف ستنتهي الأمور !"

بالطبع كانت الأمور ستأخذ منحا خطيرا وقد فهم الباروني ذلك مما خول لفكيني الخروج من يفرن والعودة إلى فساطو منتصرا.

قال لي محمد فكيني هذا الصباح وهو يمسح على لحيته المصبوغة بالحناء بينما كان يرافقني لرؤية زنزانة الرجل الطائر - أي زنزانة القائد مويزو Moizo الصغيرة المظلمة بداخل القصر، قال لي بأنه رجل يصدق القول وأنه لن يتخلف قط عما وعد به دولة كبيرة كايطاليا.

عند قوله لهذا بدا لي أن وجه فكيني غادرته السخرية والتهكم.

الفصل الثامن

في اتجاه الحدود التونسية

نالوت - الطريقان - ظاهرة جيولوجية - واحات مزّو وشكشوك الصغيرة - قصر الروم - الجوش وصبريا القديمة - بدارنة، تريزن، كباو - التلغراف التركي - نالوت : موقعها - القلعة البربرية - قرية بدائية - مياه نالوت - الحدود التونسية - الدهيبات - رجال قوافل الجنوب - استقامة رجال القوافل.

تفصل حوالي ثمانون كيلومترا- ما يعادل 22-23 ساعة من السير على الجمال- سيرا في اتجاه القمة الجبلية بين جادو وفساطو ونالوت. يوجد طريق فوق هذه الأراضي المرتفعة لبلوغ نالوت لكنه حقا في حالة جد سيئة ويعبر في شقه الأول المنطقة الأكثر وعورة في الجبل. يمر هذا الطريق من بلدات لا أهمية لها وتكاد تكون مقفرة، على الأقل حتى كباو، ويعرج على فم الغريب ويعبر أرضا متقطعة وفقط بعد واد نانا تالا حيث تجري المياه بوفرة ودون انقطاع يسلك لبعض الكيلومترات أرضا نوعا ما منبسطة، منطقة سيح العرب حيث تنمو أشجار البطوم وأدغال وأعشاب للرعي. لا تتغير معالم الطريق حتى أولاد محمود وهي قرية صغيرة تقع عند منبع واد عميق على بعد حوالي ثلاث ساعات من نالوت.

عموما لبلوغ آخر مدينة في الجبل تنحرف القوافل جنوبا لتفادي خواصر أودية عدة أو تسلك طريقا آخر وذلك بالنزول من جادو نحو السهل، سهل الجفارة القاحل، والالتحاق بالجبل بعد المرور بالجوش أو أيضا من أعلى تيزي كما فعل بالضبط مؤخرا طابور اللواء لكيو لاحتلال آخر جزء من الجبل الطرابلسي.

لنودع إذن فكيني الطيب ذو اللحية الحمراء ولنتدحرج نحو الأسفل، كحجارة القصر القديم، حيث الوادي، صوب عين جنّاون. هنا تصبح الأرض أقل قحولة وتتوفر البلدات المنتشرة هنا وهناك وسط بساتين النخل والزيتون والتين على مظهر أكثر حميمية وبلا شك أفضل بكثير.

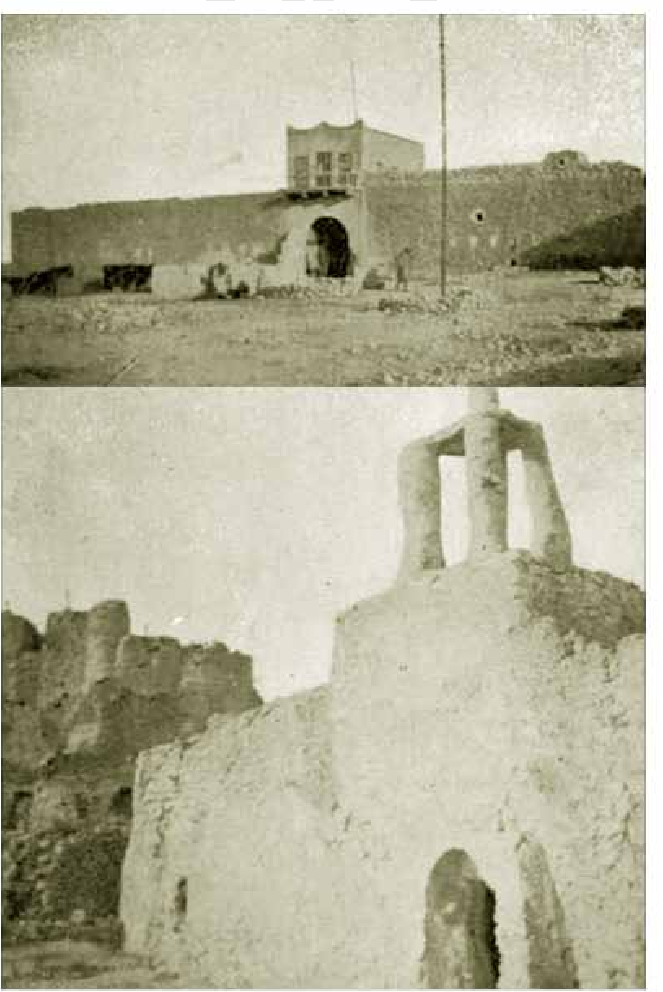
نزولا نحو الوادي، تصادف شمال جادو مزّو التي تحيط بها الخضرة - وبها مسجد ذو قبة بيضاء يشرف على الأكواخ -.

نحن على أول درجة في الجبل. إذا ما التفتنا للنظر إلى الجبال التي نزلناها وتوقفنا للإمعان في الأودية العديدة الجافة التي تقطع هذا الحاجز الجبلي لا يمكن إلا ملاحظة خاصية مثيرة في عمق هذه الأسرة النهرية القديمة تشهد على حركية جيولوجية حديثة عرفتها كل البلاد. عوض الانخفاض من الجبل نحو البحر والشمال فإن أسرة هذه الأودية الجافة عكس ذلك ترتفع عند قاعدة الجبل نحو البحر. إن هذا الارتفاع غير ملموس لكنه ملحوظ على امتداد خمسين كيلومترا حتى بلوغ خط يعبر موازيا للسلسلة الجبلية من الغرب إلى الشرق. لا يمكن تفسير هذه الظاهرة سوى بحركة عامة للأرض رافقها انخفاض في الجنوب. كانت هناك إذن حركة أرجوحية على شكل وادي منعرج وبعمق. لابد أن هذا الارتفاع في التضاريس الهيدروغرافية تم تحديده قبل حركة الانخفاض التي عرفها الداخل والتي تعود إلى فترة حديثة لاحقة لفترة تكون الأودية. إن هذه الظاهرة عامة لأنها تلاحظ على امتداد بعض مئات الكيلومترات. فانحدار الأودية غير الطبيعي هو نفسه يلاحظ في انحراف الطبقات الكلسية الجبلية المنخفضة هي الأخرى نحو الجنوب بشكل لا يكاد يكون ملموسا لكنه متواصل. بسبب ظواهر تأرجح الأرض. يتقلص الارتفاع بانتظام كلما ابتعدنا من ذروة الجبل نحو الجنوب داخل الأراضي المرتفعة. لإعطاء فكرة عن هذا الأمر نجد أن نالوت تقع على ارتفاع 620م فوق مستوى البحر. بئر زار على 500 متر شانا على 450 متر وأخيرا غدامس على ارتفاع 350 مترا.

وإذا نظرنا إلى المرتفع من حيث تطوره حسب خطوط العرض فإنه من السهل ملاحظة ارتفاع تدريجي من الغرب نحو الشرق. بالفعل تقع جادو على علو 710 مترا فوق سطح البحر ويبلغ علو جبل تراشت 900 مترا. تؤكد هذه المعطيات الحركة الأرضية الكبيرة التي عرفتها البلاد وتحدد طبيعة المنطقة كما هي اليوم على شكل سلسلة جبلية لا شكل لها رتيبة في تكوينها وبنيتها.

لنترك هذا جانبا ولنستأنف طريقنا نحو الغرب مرورا بمحاذاة أقدام الجبال التي تكاد تنزل عموديا في سهل جفارة. إن أول بلدة تصادف بعد مزّو هي شكشوك التي تتشكل من عدة تجمعات سكنية تتوسط بساتين نخل وزيتون. هنا تنتصب فوق أكمة أكثر ارتفاعا بقايا قصر. يطلق عليه الأهالي قصر الروم أي المسيحيين غير أن أصوله يلفها الغموض. حسب برنت Bernet قد يكون الأسبان هم من أسسوه في النصف الأول من القرن 16 قصد حماية مصالحهم. لكن هذه الفرضية في نظري قابلة للنقاش بل أجرؤ على القول أن لا أساس لها من الصحة لأن هيمنة الأسبان في طرابلس كان عمرها وجيزا وكانت تقتصر على الساحل فقط وتنحصر في أماكن قليلة. فعلا لم يتم غزو

طرابلس الغرب من لدن فردناد الكاثوليكي إلا في 1511م ولم تتجاوز سيطرته قط أسوار المدينة نفسها. سنوات بعد ذلك وهبها كارلو الخامس لفرسان مالطا الذين انتزعها منهم بسرعة القرصان الشهير بربروس "ذو اللحية الحمراء" إلى أن استرجعها كارلو الخامس ليعيدها إليهم. حكمها هؤلاء حتى سنة 1551م. السنة التي انتزعها منهم ومن المسيحيين وبشكل نهائي القبطان العثماني سنان باشا بعد أن أصبحت ولوقت وجيز شبه واحة مسيحية ودفاعا متقدما في وجه التهديدات التركية المستمرة. هذا المرتد المسيني (نسبة إلى مدينة مسينا)، شبيون سيسيليا، الشهير الذي اختطفه



القصر التركي القديم - مسجد نالوتي

القراصنة المسلمون صغيرا ورعوه حتى اشتد صلبه, كيف يمكن إذن الاعتقاد بأن الأسبان توغلوا خلال حكمهم المؤقت والمتأرجح في البلاد حتى منحدرات الجبل ليؤسسوا بها قلاعا محصنة؟

على العكس من ذلك لابد أن قصر شكشوك عبارة عن بناية بربرية هامة تم تشييدها في فترة لاحقة عند مدخل وادي جادو-فساطو الشاسع في وجه الغزو التركي.

باستثناء هذه البقايا التي لا أهمية لها هي أيضا لا تقدم شكشوك شيئا آخر يذكر. تعتبر واحة الجوش التي تبعد عن هذه الأخيرة بما يقارب 15 كيلومترا أكبر مساحة وأكثر غنا بنخيلها. إنها تتوفر على بساتين خصبة خضراء ومياه وفيرة وقريتها نوعا ما كبيرة وبها مقر قائمقام. يطل عليها أحد القصور المعتادة. تظهر فوق الأرض بالواحة هنا وهناك بقايا أسوار رومانية. يؤكد ماتيوزيو أن هناك كانت تنتصب قرية رومانية هامة عرفت تحت اسم صبريا المقابل الاسم الساحلي الشهير صبراتة ويقول: "يبدو لي أن هذا الاسم الأجنبي بلا شك يدل على مكان صبراتة داخلية أنكر العديد من العلماء وجودها رغم مزاعم طولومير Tolomeo. فالجغرافي اليوناني أكثر معرفة منا وإذا كان الميناء المتوسطي الكبير يتوفر على خان للقوافل فلا بد أنه كان ينتصب هنا بالقرب من أحد المنافذ الرئيسية للجبل".

هناك طريقين لبلوغ نالوت انطلاقا من الجوش: إما تسلق الجبل من جديد ومواصلة السير من البدارنة فوق قمة الجبل أو الاستمرار في السير عند قدم الحاجز الصخري مرورا بتيزي. غير أن هذا الطريق الأخير تكاد تنعدم فيه المياه وحيثما هي موجودة فإنها غير صالحة للشرب. من الأفضل إذن صعود الجبل من جديد.

تشكل البدارنة جزءا من مرتفعات جبل نفوسة لكنه يبدو وكأنه جبل منعزل بسبب الوادي العميق الذي يفصله عنه في شكل مقوس. يبدو بالنظر إليه من هنا وكأنه جلمود كبير يخرج من بحر رملي أصفر. مع ذلك فهو يتوفر على خاصيات الجبل ويتبين بالنظر إليه من السهل أنه ينطوي على نفس الطبقات الكلسية لباقي المرتفع. تتسلق عدة قرى جنباته وتحمل أكبرها اسمه.

للالتحاق من بدارنة بطريق القوافل الجبلي يجب نزول الواد ثم الصعود حتى تريزن (أو تينزريت) وهي قرية كبيرة تقع في أقصى السفح الجبلي. ظهر من جديد خط التلغراف التركي الذي رافقنا من قصر غريان حتى جادو ليدلنا على الطريق. يجب الاعتراف بأن

وسيلة الاتصال السريعة هذه كانت جد فعالة خلال كل فترة الحرب أكثر مما كنا نعتقد.

قال لي مبرق وطني كان في خدمة العثمانيين حتى أشهر قليلة مضت يتحدث اللغة الفرنسية والتركية بشكل جيد: خلال فترة الحرب كلها ورغم أنها لم تكتمل بعد فان شبكة الخط التلغرافي التركي لم يكن يشوبها أي عيب. كان أمرا صعبا تشييد شبكة تلغرافية في بلد مثل هذا هو عرضة لعواصف متكررة ولا تتوفر فيه طرق نقل مريحة ووسط ساكنة ترتاب لكل ما هو جديد. رغم ذلك تم تجاوز هذه الصعوبات بشكل مرض جدا وقام الخط بوظيفته بشكل منتظم خلال الحرب. ليس فقط بين ثكنة وأخرى (في طرابلس وبرقة) ولكن أيضا بشكل مباشر مع قسطنطينية عبر الدهيبات وتونس والسلوم والإسكندرية في مصر حتى أن حكومة اسطنبول كانت على علم بكل كبيرة وصغيرة هنا.

أضاف المبرق قائلا : إن التلغراف كان يشتغل بشكل منتظم حتى أنه كان يتم تلقي برقيات الإجابة من القسطنطينية في اليوم نفسه تقريبا. ويمكن الحصول على دليل بذلك بالبحث في أرشيفات مصالح مختلفة وبقراءة نسخ البرقيات المرسلة والمتوصل بها وأوكد لك أنها مجموعة برقيات جد هامة لأنه من خلالها يمكن معرفة كل تفاصيل عملية مقاومة الأهالي والأتراك ودخولكم إلى البلاد.

علمت أن عدد هذه المصالح التلغرافية يصل إلى 42 مصلحة. كان خط التلغراف ينتهي في جنوب الجبل عند سيناون على طريق القوافل المؤدية إلى غدامس حيث كان يجب إقامة آخر مصلحة للتلغراف حسب المشروع العثماني.

سألته: هل كان الأهالي يستخدمون التلغراف قبل الحرب؟ أجابني: نادرا ما يلجأ السكان الأصليون إلى وسيلة الاتصال هذه. فالوطني لا يولي اهتماما للمسافات: لزيارة شخص أو حمل رسالة يقدم على أيام وأيام من السير بلا مبالاة وفي غالب الأحيان حتى دون أن يعد هذه الأيام. يسافر هكذا لأسابيع وشهور أولئك الذين ينتقلون من هذه الربوع لحج زوايا بعيدة أو مكة أيضا؟

بعد انتهاء الحرب أخذ الأتراك معهم آليات الإرسال والاستقبال من نوع مورس القديم لكنهم تركوا الشبكة كما هي بشكل جعل الايطاليين يعيدون تشغيلها فورا وذلك بإدخال آليات حديثة عليها.

تعد كباو بعد تينزرت القرية الأكثر أهمية على طريق نالوت للقوافل. يتم بلوغها

بعد عبور أحد أوسع أودية الجبل أي وادي شروس الذي يمتد على بعض الكيلومترات وبه بساتين نخل صغيرة تشبه جزراً خضراء صغيرة.

تلمع كباو بطلائها الأبيض تحت أشعة الشمس ولا تختلف كثيرا عن البلدات الأخرى. تشتهر ساكنتها المنحدرة من قبيلة الحرابة بتضلعها في علوم الدين وهي التي تزود كل المنطقة بالفقهاء. تحيط حوالي أربع مائة بيت بالقصر وتتدرج حتى الوصول إلى مسجد تحت أرضي. في الأسفل ينفتح الوادي عموديا بشكل مفاجئ ويبلغ عمقه تقريبا مائة متر. فيه حقا شيئا موحشا. يصعد دوي رعد بعيد من عمقه: إنها مياه سيل تهوي من شلال إلى آخر في ظل أشجار تين شامخة ومعمرة.

يشكل الطريق بعد كباو جبالا روسية حقيقية. وذلك بالنزول والصعود دون توقف عبر أودية نوعا ما عميقة؛ بعضها عار لا نبات فيه وموحش والبعض الآخر تعبره سيول وتغطية الخضرة للقرى نادرة. ها هي محمود بقصرها القديم المخرب نصفه والمنتصب في توازن خارق على حافة هاوية ويبدو كأنه سيسقط فيها من حين لآخر. وها هناك على بعد عشر كيلومترات تقريبا تيرهيت. القلعة القابعة هي أيضا في الأعلى على حافة الجبل.

تيرهيت قرية كبيرة وهامة يقطنها مئات السكان؛ يعيش معظمهم في مساكن بدائية غير مختلفة عن تلك الموجودة في غريان وهي تتوزع في مدرجات تحت القلعة التي تحتل الجزء الأعلى من قمة صخرية. لا تكاد القلعة والبيوت ترى من بعيد فصبغتها تختلط باللون الرمادي للطبقات الكلسية الجبلية. يتكون الوادي الرئيسي لتيرهيت من شبكة غريبة من أودية صغيرة تنموا في أعماقها نباتات جد نادرة. شيد السكان خزانات لجمع المياه الشتوية لكنها تجف خلال فصل الصيف فتصبح بئر تقع في الوادي وسط بستان ساحر المصدر الوحيد للمياه. تعتبر تيرهيت آخر محطة للوصول إلى نالوت.

بعد عبور واد بو الحسا الذي تعزل شعبه مرتفع نالوت تظهر للمسافر القرية الكبيرة التي يطلق عليها الساكن المحليون لالوت.

يعتبر موقع نالوت من بين المواقع الأكثر غرابة: من أيما جهة يأتيها المرء يجب عليه النزول في واد عميق ملئ بالحجارة وتسلق الرعن الصخري المقفر الذي تنتصب عليه البلدة في كآبة. قدوما من الجبل ينزل الشطر الأخير من الطريق - طريق لا يمكن سلكها إلا على الأقدام أو على ظهر فرس- ثم يصعد وادي نالوت أو يعرج نحو الجنوب الغربي لعبور الوادي جنوب القصر.

لا تختلف هذه القرية الكبيرة التي تضم حوالي 2000 نسمة وبها بيوت فوق وتحت أرضية شيد جزء منها في عمق الوادي وجزء آخر فوق ضفافه العالية وجزء ثالث فوق سفح مرتفع في الشمال. لا تختلف كثيرا عن جادو-وفساطو ومثلما في هذه الأخيرة قد يهيأ للمرء أن إعصارا مر بها فدمرها ولم يبق منها سوى أطلال لا شكل لها.

نالوت هي مركز المنطقة التي سميت بها وتكتسب أهميتها أساسا من قربها للحدود التونسية. كما في كل قرى الجبل الأخرى تطل على البلدة بناية القلعة البربرية الضخمة القديمة المشيدة على حافة رعن جبلي.

تظهر لمن يصعد بعناء عبر مسالك وعرة نحو القمة فوق سفح أول بقايا قصر قديم تشهد مواقعه المحصنة والخنادق المحيطة به على المقاومة الباسلة التي أبلاها في وجه العدو قديما. قيل لي أنه دارت صراعات شرسة ومعارك دموية هنا. وقد حاول الجيش العثماني لعدة مرات اجتياح هذه القلعة دون جدوى. فموقعها وطبيعة الأرض والوسائل المتوفرة آنذاك جعلت منها مكانا حصينا. وقد قضى الأتراك الذين كان المقاتلون البرابرة الأشداء يحبطون دائما محاولاتهم لاقتحام القلعة سنوات وسنوات في مجهودات دموية لا فائدة منها. وبعد تأكدهم من عبثية أية محاولة اقتحام بالقوة قاموا بمحاصرة القلعة حصارا منيعا. بعد مضي وقت طويل لاحظ الأتراك غياب أي حركة في القلعة فتأهبوا لتسلق الجبل.

كانت الجيوش التركية تخشى أن تباغث أو تقع في كمين لذلك كانت حذرة في عملها. لم يكن يظهر أي مخلوق فوق جدران القلعة وحين دخلوا إليها وجدوا أمامهم مشهدا مروعا: هنا وهناك كانت توجد أكوام من جثث متعفنة. فقد فضل البرابرة عزة منهم أن يموتوا جوعا على أن يوصموا بعار الهزيمة والاستسلام. منذ ذلك الحين دخلت البلدة في كنف نفوذ السلطان واختفت منها الصراعات الدموية، وحيث أبدى آخر ثوار الجبل مقاومة سامية انتهت بموت تطوعي فظيع، أعاد الأحفاد - الذين نسوا بسرعة ملحمتهم - بناء مخازنهم.

اليوم تعطي الفرجات الثلاث مائة الغرف في مختلف طبقات الصخر للبناية الضخمة مظهر حظيرة حمام وبها يقام سوق البلدة بشكل رئيسي. هنا يتوفر كل تاجر على دكانه الخشن ويقفله احتراسا عند المساء.

هناك قلعة أخرى أحسن حالا من الأولى وقد احتفظت بطابعها العسكري، انها البناية الكبيرة المربعة التي أسسها الأتراك منذ سنين عديدة على أعلى أكمة في

المنطقة. كما قلت فإن باقي أجزاء البلدة لا تثير أي اهتمام وتبدو كركام ردوم خشنة. يسكن الجزء الأعظم من الساكنة الكهوف ويقضون حياتهم البائسة الهادئة في أماكن ضيقة ومظلمة تم حفرها في الصخر بعمل بطيء وشاق على مدار سنين طويلة. مع ذلك فلهذه المساكن البدائية ميزتها : فهي تتمتع بدرجة حرارة معتدلة ومستقرة سواء كانت رياح البرد القارس تهب في الأعلى أو كانت الحجارة تلتهب تحت وطأة حر شمس الصيف.

يقود الأهالي هنا حياة بائسة. وإذا كانت المنطقة لا توفر مصادر هامة فإنها لا تشكو ندرة المياه : فعلا توجد في الأسفل شرق نالوت عين غزيرة، بئر تروى منها الحيوانات وآبار أخرى لسقي البساتين. تعد اثنتين منها الأفضل : بئر تارليس وبئر أخرى تقع غير بعيد عن القصر كانت فيما مضى خاصة بالأتراك. تنتشر أبار أخرى وسط بساتين النخيل في قعر وادي شانگا على بعد ثلاث كيلومترات غرب نالوت.

تعتبر نالوت موقع مراقبة جد متقدم في الجبل. يمكن القول أن ها هنا ينتهي الجدار الجبلي الذي يمتد من مرتفعات ترهونة حتى أراضي الجفارة على طول 400 كيلومترات تقريبا. ينخفض المرتفع بعد نالوت بشكل ملموس وتدريجي وينتهي في الحمادة، السهل الرملي الجاف. تفصلنا بعض الأكمات و مرتفعات مبرابا والزرگة عن الحدود التونسية التي تشرف الدهيبات على مراقبتها. لا يفصل بين نالوت والدهيبات سوى أربعين كيلومترا أو أقل لذلك من السهل إدراك الأهمية التي كانت لنالوت بالنسبة للأتراك والعرب خلال الحرب: تحت أعين الفرنسيين كانت القوافل المحملة بالسلع المهربة تعبر باستمرار من الدهيبات في اتجاه نالوت التي كانت تشكل قاعدة كبيرة لتموين كل أراضي طرابلس. لما يزيد عن سنة حول الصراع التركي الايطالي مركز الجبل الغربي إلى سوق نشيطة، إلى مخزن كبير. بانتهاء الحرب فضل الجزء الأكبر من ساكنة هذا المركز أمام تقدم طابور اللواء لكيو مغادرة البلاد والعبور إلى تونس لإحساسه بالشبهة. لهذا السبب وجد جنودنا هذه المنطقة شبه خالية.

فقدت نالوت ريادتها التجارية اليوم ولم تعد تمثل مركز حتى للتجارة الصحراوية، فالدهيبات تحاول أن تمتص كل الحركة التجارية الداخلية لطرابلس وبالأساس تلك القادمة من غدامس. لكنه إذا ما تم اتخاذ الإجراءات الناجعة والعمل بحزم فان الأزمة الحالية ستكون عابرة وسوف تستعيد نالوت أهمية دائمة وبارزة لأن من صالح القوافل القادمة من الجنوب لأسباب عدة التوجه إلى هذه البلدة الواقعة في أقصى الجبل. فعلا

كما تشكل غريان منفذا طبيعيا على السهل الساحلي لطرق فزان فإن نالوت تشكل منفذا طبيعيا لطرق القوافل القادمة من غات وغدامس.

تقضي القوافل حوالي ستة أيام للوصول إلى نالوت انطلاقا من واحة غدامس التي تم من حسن الحظ تأكيد السيطرة الايطالية عليها وذلك مرورا كما اعتادت من غدامس، سانية يعقوب، سيناون ثم نالوت. لقد قلت كما اعتادت لأن الطرق التي تربط السودان بالساحل المتوسطي عبر طرابلس عديدة أكثر مما يعتقد عموما. للتأكد من ذلك يكفي النظر في مراحل سفر أولئك الذين زاروا هذه المناطق أو مساءلة الأهالي الذين قطعوها لقضاء مآربهم.

ليست هناك حقا حواجز طبيعية تجعل الطرق تتجه نحو ممرات محددة بينما كانت ضرورة تفادي بلدان تمزقها صراعات سياسية ضرورة تفادي التعرض للنهب ترغم القوافل في كل الأزمنة على اختيار واقتفاء طرق جديدة. من المعلوم أن رجال القوافل في بعض الأحيان لم يكونوا يكتفون بهجر طريق ما وإنما كانوا يخربون ويخفون آباره ليضيقوا الخناق على قطاع الطرق بالصحراء.

تحويل الطرقات هذا ممكن لأن ما يعرف عموما بالصحراء هو كذلك لبعض الأشهر من السنة فقط، بينما في فترات أخرى يعمره بالأساس الرعاة والقطعان التي تنزل من الجبل. إن العدد الكبير نسبيا من الآبار المحفورة من لدن هؤلاء الرعاة إلى جانب الاستغناء عن أماكن التوقف الذي تسمح به قناعة الجمال والمسافرين المحليين، يسهل تحويل طرق القوافل والانتقال من طريق إلى آخر.

هكذا يحدث كثيرا أن ينتقل الأهالي في وصفهم لطريق من خط رحلة إلى آخر. هذه الخطوط التي نريد أن نحددها انطلاقا من تصورنا لسبل الاتصال والذي يختلف كثيرا عن تصور الأهالي لها. ترتبط الواحات، الآبار، الغدران والأضحال المعشوشبة على طول السنة تقريبا ببعضها البعض في كل الاتجاهات عبر مسالك جد كثيرة تشكل على مستوى ما يعرف بمنطقة العبور الخاصة بقبائل معينة شبكة كبيرة يسهل للأهالي التنقل عبرها من موقع إلى آخر: هذه التنقلات ليست سهلة بالنسبة لنا نحن الذين نربطها دائما بالأهمية اللوجستيكية لطرق القوافل.

حتى تجارة العبور رغم ألتماسها للطريق المختصر بين مركز وآخر لتفادي المكوس التي تفرضها عليها القبائل التي تقود القوافل أو ضرائب العبور المرتفعة المدفوعة لهذه

القبيلة أو تلك فإنها تنتقل بسهولة من درب إلى آخر مساهمة بذلك في ارتفاع هذه الدروب. يمارس تجارة القوافل هنا عموما تجار يفوّضون قيادة البضائع لرجال قبائل لها حقوق خاصة على طرق معينة أو أجزاء منها وقد كانت هذه التجارة دائما موضع ضرائب الوقوف والعبور إلى آخره بشكل جعل رجال القوافل يتفادون عموما الأماكن المعمرة التي لا يجب عليهم التوقف فيها لأسباب تجارية.

يعتبر الطوارق على سبيل المثال، وهم فعلا كذلك، سادة الطرقات خاصة منها تلك التي تربط غدامس بالسودان. فهم يتقاضون منذ زمن بعيد خراجا من القوافل التي تعبر مناطق نفوذهم والتي يستعمل فيها من يريد الأمان لجمالهم، ولم يكونوا يدفعوا أية ضريبة، سوى واحدة خاصة بالجمال، مقابل صيانتهم للطرقات.

من المفيد الاطلاع في هذا الصدد على المعاهدة التي أبرمها قائد "بعثة غدامس" ميرشر Mircherمع الطوارق. يأتي العقيد مونتاي Monteil في كتابه "من سان لوي حتى طرابلس عبر بحيرة التشاد" (1894) بالمثال التالي حول قيادة القوافل من وإلى السودان:

"تنطلق كل سنة في حوالي شهر سبتمبر من أير أو أزبن (منطقة جبلية بالصحراء الوسطى) قافلة من ثلاثة إلى أربعة آلاف جمل تدعى أيري. تذهب هذه القافلة المحملة بالحبوب والثمور إلى بلما (جنوب واحة كافار وشمال تشاد) لمقايضة حمولتها بالملح الجيد الذي يجمع هناك. تعود القافلة - الأيري- المحملة بالملح إلى تنتلوست (عاصمة الأير) ثم تتجه بعد ذلك إلى زندر وكانو. في زندر يتجه جزء من القافلة إلى كتزينا وسكوتو.

تحل القافلة في شهر يناير بكانو ومنها تحمل منتوجات من ريش نعام وعاج وجلود إلى غدامس.

"إن رجال القوافل الذين يأتمنهم التجار الوطنيون على بضائعهم هم الطوارق الكلويين (كل وي). عند بئر أوسيون، حد منطقة نفوذهم، يسلم هؤلاء القافلة لطوارق أزگر (أزجر) الذين يتكلفون بالنقل حتى غدامس".

"تتركز تجارة الصحراء في يد أربع أو خمس مائة وطني يمثلون محلات تجارية في طرابلس وغدامس. لكن هذه الحركة التجارية ليست في نظري سوى خمس الحركة التجارية لكانو التي تتمركز في غالبيتها في يد رجال قبيلة الحاسا".

قد تشكل الطريقة التي يتم بها تنظيم هذه القوافل والكيفية التي تقضي

بها أسفارها الطويلة، أهميتها التجارية والظروف اليومية التي تمر منها، قد تشكل موضوعا لا يقل أهمية وقد تعطي فكرة عما كان عليه وعلى ما قد يكون عليه غدا التطور التجاري لطرابلس.

كانت كل أهمية الجبل حتى الأمس ترجع إلى كونه منطقة عبور للقوافل القادمة من الداخل أو المتجهة إليه. أقول كانت لأن حربنا أوقفت لمدة سنتين تقريبا كل هذا النشاط التجاري. وقد كانت القوافل تنظم في طرابلس حتى الأمس بطرق مختلفة. بعضها كان يقوده وطنيون لهم سمعة حسنة لكن ولأنهم لا يتوفرون على رؤوس الأموال الضرورية لتزويد القافلة بالبضائع كانوا يشترون بالدين ويعطون رهونا على ممتلكاتهم. كانت قوافل أخرى ينظمها تجار طرابلسيون، كثيرا ما كان من بينهم اليهود أيضا، يزودون القافلة بالبضائع ويفوضون أمر قيادتها لرجال قوافل محترفين: في هذه الحالة كانت الأرباح تقتسم مناصفة. في كلتا الحالتين تبقى خاصية هذه التجارة المبنية على المغامرة هي حسن النية بين الطرفين المتعاقدين. لقد تم التأكيد لي على أن العلاقات بين القافلة والأخرى تطبعها دائما الاستقامة والوفاء ولا يحدث قط أن تسيطر قافلة كبيرة بالقوة على بضائع قافلة أصغر منها ولا حتى على البضائع التي قد تضطر قافلة لتركها على الطريق بسبب حدث عارض. في الحقيقة يبدو لي أن هذا الأمر مبالغ فيه نوعا ما مع ذلك فإن دفيريي Duveyrier يؤكد أنه وجد على طريق غدامس بضائع تركتها قافلة في رعاية الله وحده ولا أحد تجرأ على مسها.

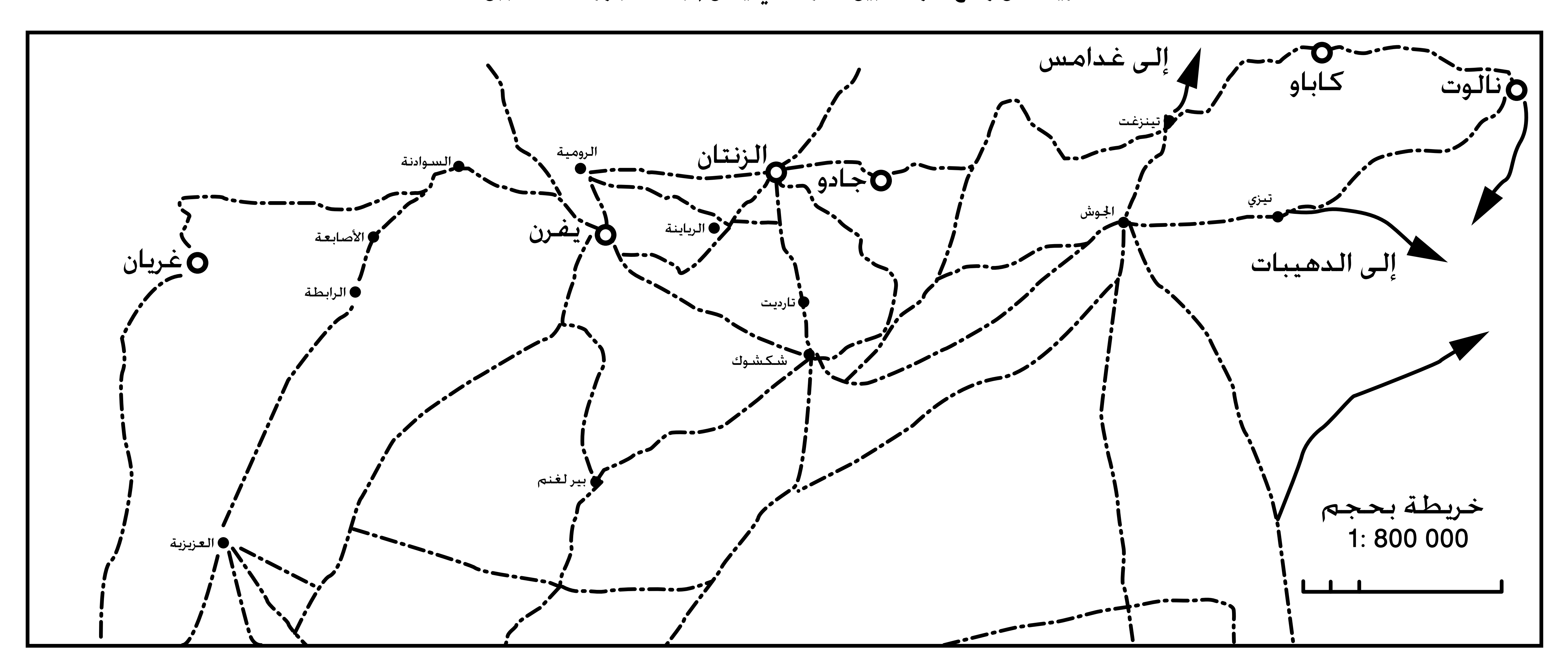
لم تكن هذه القوافل المتجهة نحو الداخل قبل الحرب مرورا بالجبل عبر غريان، يفرن، فساطو ونالوت تحمل سوى بضائع للمقايضة لأن النقود لم تكن معروفة بعد بشكل جيد في الجنوب. اليوم وبعد سقوط الحاجز العدواني الذي رفعه الأتراك بين الساحل والداخل وعودة الأمان إلى الطرقات يمكن لتجارة القوافل أن تزدهر بشكل سريع في هذه المناطق وإذا ما تم توجيهها بحكمة سوف تبلغ نموا فقدته بشكل ملموس خلال الثلاثين سنة الماضية بسبب الدعاية النشيطة للفرنسيين في تونس.

حسب هيرودوت فإن القرطاجيين الذين كانوا غزاتا وتجارا في نفس الوقت توصلوا منذ قديم الزمان إلى ربط علاقات تجارية هامة على السواحل الليبية مع سكان الداخل.

هل نكون نحن أقل منهم؟

من قصر غريان إلى نالوت

خريطة من وضع المؤلف تبين الطرق التي يمكن إتباعها لتجاوز مناطق الجبل



بيان الرحلة (طرابلس- قصر غريان- يفرن- جادو- فساطو- نالوت)

المكان	التوقيت	أحداث مختلفة
من طرابلس إلى فندق توغار	2.30	الطريق تقريبا من منبسط ومتين لحوالي ساعة من السير ثم أصبح رمليا لحوالي 20 دقيقة. بعد ذلك عاد إلى متانته ماعدا شريطا رمليا من 300 متر قبل الوصول إلى فندق التوغار الطريق قابل للعبور بواسطة الشاحنات حتى غريان. أرض متموجة ورملية.
فندق توغار	-	بيت يحيط به - سور وبه بئر مياهه جيدة. هناك بئر آخر أصغر قبل الوصول إلى الفندق بعشرين دقيقة 20.
من فندق توغار إلى فندق ماگوز	1,30	طريق جيد ومتين الأرض أكثر صلابة مما سبق. يوجد بفندق ماگوز بناية الفندق وبئر.
من فندق ماگوز إلى سواني بن يادم	2,15	يعبر الطريق لحوالي '45 نجيلة جافة صيفا ومتعددة الآبار شتاء. غير أن الطريق صالح للاستعمال حتى خلال فصل الشتاء ويمكن تفادي البرك المائية بالخروج عن الطريق إلى الأراضي المجاورة. بعد النجلا هناك 2-3 كيلومترات من أرض رملية غير مرتفعة
سواني بن يادم		بها محطة قطار ومكان للاستراحة. بها حديقة على الطريق. حوالي ' 10 غربا توجد حديقة أخرى سواني بن موسى.. توجد أشجار النخل في كلتا الحديقتين. بها أبار جيدة. ووفيرة المياه لا يتعدى عمقها 2 أو 6 أمتار. تحيط بسواني بن يادم أدغال وأشجار (غير كثيرة) من العناب منطلق طريق للقوافل من سواني بن يادم صالح للشاحنات ويمر من فندق بن گصير. مواجن محمود أبيار ميلگا لينتهي في ترهونة.
من سواني بن يادم إلى بئر ميامين	-2	طريق صلب أرض متموجة وصلبة. بها العديد من أشجار العناب. باستثناء. شريط رملي يتطلب عبوره '20.
بئر ميامين		بها فندق. بئرين بهما مياه جيدة (يصل عمقهما إلى حوالي 10 أمتار)
من بئر ميامين إلى بئر أم العدم	1,15	طريق مماثل للمذكور أعلاه. بئر كثيرة المياه
من بئر أم العدم إلى سواني بن ناصر	1.15	طريق مماثل للمذكور أعلاه. أرض تكاد تكون منبسطة على الوجه الأكمل بها العديد من أشجار العناب.
سواني بن ناصر		بها بئر يبلغ عمقه حوالي 35 مترا به مياه طيبة ووفيرة. وبها بستان من أشجار الزيتون والتين وفاكهة أخرى. قبل سواني بن ناصر يتفرع طريق على الشمال (شرقا) يلف حول سيدي رمضان ويلتحم فيما بعد بطريق العزيزية - بئر لالاّ
من سواني بن ناصر إلى عزيزية	0,45	طريق يشبه المذكور أعلاه.
العزيزية		هناك قصر غرب الطريق. في الشرق يوجد مرتفع ينتصب عليه ضريح سيدي رمضان ومقبرة. بين القصر والمرتفع توجد مدرسة وبعض الدكاكين. منازل وفنادق. يتوفر القصر على حوالي 20 غرفة. بالقرب منه يوجد بئرين أحدهما كبير وبه مياه وفيرة. توجد آبارا أخرى مختلفة حول عزيزية تبعد مسافة ساعة من السير عن بعضها البعض. توجد بها حاليا آخر محطة للقطار الرابط بين طرابلس سواني بن يادم - العزيزية. توجد جنوب عزيزية أرض بها أدغال كثيرة. ينطلق من العزيزية طريق قوافل يعرف بطريق قطيس يمر من بئر شوشا وهنشير الأبيض ويتجه إلى يفرن.

من العزيزية إلى بئر لالاّ	3, _	طريق حسن. منبسط ومتين. الأرض منبسطة وتكسوها أشجار العناب.
بئر لالاّ		بها بئر كبير يصل عمقه إلى 70 مترا وهو غزير المياه لا يتوفر على بناء فوقي.
من بئر لالاّ إلى فندق الشيباني	2, _	الطريق والأرض كما هو مذكور أعلاه.
فندق الشيباني		به فندق وخزان ماء. يصبح الطريق بين عزيزية وبئر للا غير صالح للاستعمال بعد سقوط أمطار غزيرة بسبب المياه الراكضة فيه في هذه الحالات يسلك الأهالي طريقا يمر من أم الكروم، رأس الماجن، وادي الهير، بئر لقمان ليصل إلى فندق الشيباني ويستغرقون تقريبا نفس الوقت.
فندق الشيباني إلى بوغيلان	3, _	يقطع الطريق من فندق الشيباني، أرضا مرتفعة رملية وموحلة على امتداد حوالي كيلومترين و ذلك حسب الفصول قبل أن يدخل في منطقة كثيرة الحجارة. "تكاد الحجارة الكبيرة تكسوا الأرض كلها خاصة في المقطع الأخير من الطريق.
بوغيلان		عبارة عن عين مياهما جيدة وغزيرة وهي تنبع من أحد جنبات الوادي الذي تحمل اسمه. على يمين الطريق توجد بساتين للنخيل. الجانب الغربي من الجبل عبارة عن جرف من صخور كبيرة غير متسقة. عكس ذلك فالجانب الشرقي من الوادي جد وعر لكنه متسق ومتماسك.
من بوغيلان إلى قدم الجبل	1,30	يرتفع مستوى الطريق بحوالي 7%

من قدم الجبل إلى جبل توبّي	2 , _	الطريق منبسط تقريبا لحوالي كيلومتر ويعبر بساتين زيتون جد كثيفة تتقلص بشكل تدريجي حتى جبل توبّي؛ الأرض متموجة، بها مرتفعات صغيرة في الجهة الغربية تشكل إحداها جبل تاشوت الذي يرتفع بحوالي 200 متر فوق مستوى المرتفع
من جبل توبّي إلى قصر غريان	1,30	يصعد الطريق بشكل عادي على أحد جنبات جبل توبّي لحوالي '45 ثم تصبح الأرض تقريبا منبسطة. يعبر الطريق بساتين زيتون وتين وخضر قبل الوصول إلى القصر. شمال جبل توبّي، في الأسفل على يسار الطريق ب '10 توجد ثلاث أبار بها مياه جيدة وغزيرة. جنوب غرب القصر توجد عين، عين التركي، بها مياه غزيرة وممتازة.
قصر غريان (620)		مركز المنطقة التي اقتبس منها اسمه. يقع فوق مرتفع ويشرف على الأرض المحيطة به. يتوفر في الجهة الشمالية على سفح منحدر ووعر وفي الجهات الأخرى على مدرجات بها بساتين زيتون وتين ولوز. البيوت عبارة عن كهوف. لا يوجد فوق سطح الأرض سوى القصر، مقر بنك روما، مقر الحاكم العثماني، دار الجهة، أربعة دكاكين، مقهى ومدرسة. بضواحي القصر توجد عدة قرى بها ساكنة تصل في مجملها إلى 13,000 نسمة تقريبا

يستغرق السفر من طرابلس إلى غريان حوالي 26 ساعة

فهرس

الفصل الأول: غزو الجبل

الجبل البعيد - على آثار روما - الكدية البيضاء (العزيزية) - أسطورة الصحراء - عين بوغيلان مدير يقدم القرابين لباكو (اله الخمر)- العجائب الثلاثة لبوغيلان - الخطوة الأولى على الجبل - فوق جبل غريان - قصر غريان، مدينة المناجذ- المكان الذي كان يسجن فيه الإيطاليون-

الفصل الثاني: تناول الشاي في بيت مختار باي

البرد الإفريقي - القصر القديم - مقاومة الأتراك فوق جبل غريان - بلدة غريان - النائب السابق مختار باي - في عقر بيت هذا الأخير - الضيافة الإسلامية - الاسترسال في الحديث - برابرة الجبل الأصليون - طائفة الإباضيين - المجموعة الثانية...

الفصل الثالث: الممر الجديد من بوابة الجبل

إلى يفرن - الرحيل من قصر غريان على ظهر الشاحنة - منبسط الأصابعة - عبر طبيعة عذراء - كلكلة والسوادنة - مرور قافلة - الضريح الروماني.

الفصل الرابع: يفرن، عش الصقر-

رعن يفرن- طوق من قرى القرون الوسطى- آخر أشجار النخيل - غومة، بطل الجبل- الطريقة التي قمع بها الأتراك الثورة - الحلم الطموح للباروني - في بيت الصقر الهارب- رجل ومخلفاته- استقلال الجبل- أسباب مقاومة الجبل- السنيون والإباضيون تأسيس الباروني لدولة الرعب- هزيمة الأصابعة- العمل العسكري للواء لوكيو - إخماد الحرب في مدغشقر وفي الجبل: مقارنات تاريخية - لا يجب الوثوق بالباروني... !

الفصل الخامس : في عين رومية العذبة

عاصفة ليلية - طرابلس الجبل - تجارة وطنية وعلامة فرنسية - معمل الباروني لصناعة الأسلحة - مرشدنا إبراهيم بن علي - بساتين يفرن - عين الرومية - كيف حصلت يفرن على التجهيزات المائية ولم تحصل على الماء - خفير الماء.

الفصل السادس: من الرومية إلى فساطو الناعسة

تقييم المسافات عند العرب- وادي الخلايفة - ممرات صعبة - سهل الرياينة - الليمس تربوليتانوس- أبراج وقلاع- الغزو الروماني وآثاره - دراية الرومان بأساليب الاحتلال - الزنتان الموحشة والمريبة- سكونية الإحياء والأشياء- قصة إبراهيم- ليلة في العراء.

الفصل السابع: جادو-فساطو مدينة النوم

كازا فساطو - أطلال وخمول- المقابر - الأذان- عين تسنوگدت - فكيني الملقب بدو اللحية النحاسية.

الفصل الثامن: في اتجاه الحدود التونسية

نالوت - الطريقان- ظاهرة جيولوجية- واحات مزّو وشكشوك الصغيرة - قصر الروم - الجوش صبرا القديمة - بدارنة، تريزن، كباو - التلغراف التركي - نالوت : موقعها - القلعة البربرية- قرية بدائية - مياه نالوت - الحدود التونسية - الدهيبات - رجال قوافل الجنوب - استقامة رجال القوافل.